أحوال بني إسرائيل مع فرعون وعبادة العجل ومسألة التوبة وطلب الطعام وغيرها من مسائل

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ

ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾البقرة ٤٩-٦١

أما تفسيرها بحسب:

* ابن كثير:

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾البقرة ٤٩

يقول تعالى: اذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم، إذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب، أي: خلصتكم منهم وأنقذتكم من أيديهم صحبة موسى (ع)، وقد كانوا يسومونكم أي يوردونكم ويذيقونكم ويولونكم سوء العذاب وذلك أن فرعون لعنه الله كان قد رأى رؤيا هالته، رأى ناراً خرجت من بيت المقدس فدخلت بيوت القبط إلاَّ بيوت بني إسرائيل، مضمونها أن زوال ملكه يكون على يدي رجل من بني إسرائيل، فعند ذلك أمر فرعون لعنه الله بقتل كل ذكر يولد بعد ذلك من بني إسرائيل، وأن تترك البنات، وأمر باستعمال بني إسرائيل في مشاق الأعمال وأرذلها، وههنا فسر العذاب بذبح الأبناء، وفي سورة إبراهيم عطف عليه كما قال: ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾، وسيأتي تفسير ذلك في أول سورة القصص، إن شاء الله تعالى وبه الثقة والمعونة والتأييد. ومعنى (يسومونكم) يولونكم كما يقال: سامه خطة خسف إذا أولاه إياها، قال عمرو ابن كلثوم:

إذ ما الملك سام الناس خسفاً أبينا أن نُقرّ الخسف فينا

وقيل معناه: يديمون عذابكم، وإنما قال ههنا: ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾ ليكون ذلك تفسيراً للنعمة عليهم في قوله: ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾، ثم فسره بهذا لقوله ههنا ﴿ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾البقرة: ٤٧ . وأما في سورة إبراهيم فلما قال﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ ﴾ إبراهيم: ٥ أي بأياديه ونعمه عليهم

فناسب أن يقول هناك: ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾، فعطف عليه الذبح ليدل على تعدد النعم والأيادي على بني إسرائيل. (وفرعون) علمٌ على كل من ملك مصر كافراً من العماليق وغيرهم، كما أن (قيصر) علمٌ على كل من ملك الروم مع الشام كافراً، و(كسرى) لمن ملك الفرس. ويقال: كان اسم فرعون الذي كان في زمن موسى (ع) (الوليد ابن مصعب بن الريان) فكان من سلالة عمليق، وكنيته أبو مرة، وأصله فارسي من اصطخر. وأياً ما كان فعليه لعنة الله. وقوله تعالى: ﴿ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ ﴾ قال ابن جرير: وفي الذي فعلنا بكم من إنجائنا آباءكم مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون، بلاء لكم من ربكم عظيم، أي نعمة عظيمة عليكم في ذلك، وأصل البلاء الاختبار، وقد يكون بالخير والشر كما قال تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾الأنبياء: ٣٥ ، وقال: ﴿ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾الأعراف: ١٦٨ .

وقيل المراد بقوله: ﴿ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ ﴾ إشارة إلى ما كانوا فيه من العذاب المهين من ذبح الأبناء واستحياء النساء، قال القرطبي: وهذا قول الجمهور والبلاء ههنا في الشر، والمعنى: وفي الذبح مكروه وامتحان.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ معناه: وبعد أن أنقذناكم من آل فرعون وخرجتم مع موسى (ع)، خرج فرعون في طلبكم ففرقنا بكم البحر، ﴿ فَأَنجَيْنَٰكُمْ ﴾ أي: خلصناكم منهم نحجزنا بينكم وبينهم وأغرقناهم وأنتم تنظرون، ليكون ذلك أشفى لصدوركم وأبلغ في إهانة عدوكم.

﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾البقرة: ٥٠

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ معناه: وبعد أن أنقذناكم من آل فرعون وخرجتم مع موسى (ع)، خرج فرعون في طلبكم ففرقنا بكم البحر، ﴿ فَأَنجَيْنَٰكُمْ ﴾ أي: خلصناكم منهم

وحجزنا بينكم وبينهم وأغرقناهم وأنتم تنظرون، ليكون ذلك أشفى لصدوركم وأبلغ في إهانة عدوكم. وقد ورد أن هذا اليوم كان يوم عاشوراء، لما روي عن ابن عباس قال: قدم رسول الله المدينة فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء، فقال: ((ما هذا اليوم الذي تصومون؟))، قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله عزَّ وجلَّ فيه بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى (ع)، فقال رسول الله (ص): ((أنا أحق موسى منكم)) فصامه رسول الله (ص) وأمر بصومه..

﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ البقرة: ٥١-٥٢

يقول تعالى: ﴿ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ البقرة: ٤٧

في عفوي عنكم، لما عبدتم العجل بعد ذهاب موسى لميقات ربه عند انقضاء أمد المواعدة، وكانت أربعين يوماً وهي المذكورة في الأعراف في قوله تعالى: ﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ ﴾ الأعراف: ١٤٢، وكان ذلك بعد خلاصهم من فرعون وإنجائهم من البحر.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ يعني التوراة، ﴿ وَٱلْفُرْقَانَ ﴾ وهو ما يفرق بين الحق والباطل والهدى والضلالة ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾، وكان ذلك أيضاً بعد خروجهم من البحر كما دل عليه سياق الكلام في سورة الأعراف، ولقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ القصص: ٤٣ .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ البقرة ٥٤

هذه صفة توبته تعالى على بني إسرائيل من عبادة العجل، حين وقع

في قلوبهم من شأن عبادتهم العجل ما وقع ﴿ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ ﴾ أي: إلى خالقكم. وفي قوله ههنا ﴿ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ ﴾ تنبيه على عظم جرمهم، أي: فتوبوا إلى الذي خلقكم وقد عبدتم معه غيره، قال ابن جرير بسنده عن ابن عباس: أمر موسى قومه عن أمر ربه عزَّ وجلَّ أن يقتلوا أنفسهم قال: وأخبر الذين عبدوا العجل فجلسوا، وقام الذين لم يعكفوا على العجل فأخذوا الخناجر بأيديهم، وأصابتهم ظلمة شديدة فجعل يقتل بعضهم بعضاً، فانجلت الظلمة عنهم وقد جلوا عن سبعين ألف قتيل، كل من قتل منهم كانت له توبة، وكل من بقي كانت له توبة. وقال السدي: في قوله: ﴿ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾ قال: فاجتلد الذين عبدوه والذين لم يعبدوه بالسيوف، فكان من قتل من الفريقين شهيداً حتى كثر القتل حتى كادوا أن يهلكوا، حتى قتل منهم سبعون ألفاً وحتى دعا موسى وهارون ربنا أهلكت بني إسرائيل ربنا البقية الباقية، فأمرهم أن يلقوا السلاح وتاب عليهم، فكان من قتل منهم من الفريقين شهيداً، ومن بقي مكفراً عنه فذلك قول: ﴿ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾. وقال ابن إسحاق: لما رجع موسى إلى قومه وأحرق العجل وذراه في اليم خرج إلى ربه بمن اختار من قومه فأخذتهم الصاعقة ثم بعثوا، فسأل موسى ربه التوبة لبني إسرائيل من عبادة العجل فقال: لا إلاَّ أن يقتلوا أنفسهم، قال: فبلغني أنهم قالوا لموسى نصبر لأمر الله، فأمر موسى من لم يكن عبد العجل أن يقتل من عبده، فجعلوا يقتلونهم، فهش موسى، فبكى إليه النساء والصبيان يطلبون العفو عنهم فتاب الله عليهم وعفا عنهم، وأمر موسى أن ترفع عنهم السيوف، وقال عبد الرحمن بن زيد: لما رجع موسى إلى قومه، وكانوا سبعين رجلاً قد اعتزلوا مع هارون العجل لم يعبدوه، فقال لهم موسى: انطلقوا إلى موعد ربكم، فقالوا: يا موسى يا من توبة؟ قال: بلى ﴿ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ ﴾ الآية، فاخترطوا السيوف والخناجر والسكاكين، قال: وبعث عليهم ضبابة فجعلوا يتلامسون بالأيدي ويقتل بعضهم بعضاً، ويلقى

الرجل أباه وأخاه فيقتله وهو لا يدري. قال: ويتنادون فيها رحم الله عبداً صبر نفسه حتى يبلغ الله رضاه، قال فقتلاهم شهداء وتيب على أحيائهم ثم قرأ: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ البقرة: ٥٥

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ البقرة: ٥٦

يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في بعثي لكم بعد الصعق، إذ سألتم ر ؤيتي جهرة عياناً مما لا يستطاع لكم ولا لأمثالكم. قال ابن عباس: (جهرة) علانية، وقال الربيع بن أنس: هم السبعون الذين اختارهم موسى فساروا معه، قال فسمعوا كلاماً فقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾، قال: فسمعوا صوتاً فصعقوا، يقول ماتوا.

قال السدي في قوله: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ الصاعقة: نار فماتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول: رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ الأعراف: ١٥٥، فأوحى الله إلى موسى أن هؤلاء السبعين ممن اتخذوا العجل، ثم إن الله أحياهم فقاموا وعاشوا ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون؟ قال: فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. وقال الربيع وابن أنس: كان موتهم عقوبة لهم فبعثوا من بعد الموت ليستوفوا آجالهم، وقال ابن جرير: لما رجع موسى إلى قومه فرأى ما هم عليه من عبادة العجل، وقال لأخيه وللسامري ما قال، وحرّق العجل وذراه في اليم، اختار موسى منهم سبعين رجلاً، الخير فالخير، وقال: انطلقوا إلى الله وتوبوا إلى الله مما صنعتم، واسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم. صوموا وتطهّروا وطهّروا ثيابكم، فخرج بهم إلى طور سيناء لميقاتٍ وقّته له ربه، وكان لا يأتيه إلاَّ بإذن

منه وعلم، فقال له السبعون ـ فيما ذكر له ـ حين صنعوا ما أمروا به وخرجوا للقاء الله: يا موسى اطلب لنا إلى ربك نسمع كلام ربنا. فقال: أفعل. فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله، ودنا موسى فدخل فيه، وقال للقوم: ادنوا. وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه فضرب دونه بالحجاب، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجوداً فسمعوه وهو يكلم موسى، يأمره وينهاه: افعل ولا تفعل، فلما فرغ إليه من أمره انكشف عن موسى الغمام فأقبل إليهم، فقالوا لموسى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ فأخذتهم الرجفة وهي الصاعقة، فماتوا جميعاً، وقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ﴾الأعراف: ١٥٥قد سفهوا، أفتهلك من ورائي من بني إسرائيل بما يفعل السفهاء منا؟ أي إن هذا لهم هلاك، واخترت منهم سبعين رجلاً الخير فالخير أرجع إليهم وليس معي منهم رجُل واحد، فما الذي يصدقوني به ويأمنوني عليه بعد هذا؟ ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾الأعراف: ١٥٦، فلم يزل موسى يناشد ربه عزَّ وجلَّ ويطلب إليه حتى ردّ إليهم أرواحهم، وطلب إليه التوبة لبني إسرائيل من عبادة العجل، فقال: لا إلاَّ أن يقتلوا أنفسهم. وقال السدي: لما تابت بنو إسرائيل من عبادة العجل وتاب الله عليهم بقتل بعضهم لبعض كما أمرهم الله به، أمر الله موسى أن يأتيه في أناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل، ووعدهم موسى فاختار موسى سبعين رجُلاً على عينه، ثم ذهب بهم ليعتذروا وساق البقية. والمراد السبعون المختارون منهم، ولم يحك كثير من المفسّرين سواه، وقد غلط أهل الكتاب في دعواهم أن هؤلاء رأوا الله عزّ وجلّ، فإن موسى الكليم (ع) قد سأل ذلك فمُنِع منه، فكيف يناله هؤلاء السبعون!؟

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾البقرة: ٥٧لماذا ذكر تعالى ما دفعه

عنهم من النقم، شرع يذكّرهم أيضاً بما أسبغ عليهم من النعم فقال: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ ﴾ جمع غمامة، سمي بذلك لأنه يغم السماء أي يواريها ويسترها، وهو السحاب الأبيض ظللوا به في التيه ليقيهم حرّ الشمس. وقال الحسن وقتادة ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ ﴾: كان هذا في البرية ظلل عليهم الغمام من الشمس، وعن مجاهد ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ ﴾ قال: ليس بالسحاب هو الغمام الذي يأتي الله فيه في قوله: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ البقرة: ٢١٠ وهو الذي جاءت فيه الملائكة يوم بدر، قال ابن عباس: وكان معهم في التيه.

﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ ﴾ اختلفت عبارات المفسّرين في المن ما هو؟ فقال ابن عباس: كان المن ينزل عليهم على الأشجار فيغدون إليه فيأكلون منه ما شاؤوا، وقال السدي: قالوا: يا موسى كيف لنا بما ههنا، أين الطعام؟

فأنزل عليهم المنّ فكان يسقط على شجرة الزنجبيل. وقال قتادة: كان المن ينزل عليهم في محلّهم سقوط الثلج، أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، يسقط عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس يأخذ الرجل منهم قدر ما يكفيه يومه ذلك. وقال عبد الرحمن بن أسلم: إنه العسل.

والغرض: أن عبارات المفسرين متقاربة في شرح المّن. فمنهم من فسّره بالطعام، ومنهم من فسّره بالشراب، والظاهر ـ والله أعلم ـ أنه كل ما امتنّ الله به عليهم من طعام وشراب وغير ذلك مما ليس لهم فيه عمل ولا كد. فالمن المشهور إن أكل وحده كان طعاماً وحلاوة، وإن مُزج مع الماء صار شراباً طيباً، وإن ركّب مع غيره صار نوعاً آخر، ولكن ليس هو المراد من الآية وحده، والدليل على ذلك قول النبي (ص): «الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين». وقال رسول الله (ص): «العجوة من الجنة وفيها شفاء من السم، والكمأة من المن وماؤها شفاء للعين».

وأما السلوى فقال ابن عباس: السلوى طائر يشبه السماني كانوا يأكلون

منه. وقال قتادة: السلوى كان من طير إلى الحمرة تحشرها عليهم الريح الجنوب، وكان الرجل يذبح منها قدر ما يكفيه يومه ذلك، فإذا تعدى فسد ولم يبق عنده، حتى إذا كان يوم سادسه ليوم جمعته أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه؛ لأنه كان يوم عبادة لا يشخص فيه لشيء ولا يطلبه. وقال السدي: لما دخل بنو إسرائيل التيه قالوا لموسى (ع): كيف لنا بما ههنا، أين الطعام؟ فأنزل الله عليهم المن. فكان ينزل على شجر الزنجبيل، والسلوى وهو طائر يشبه السماني أكبر منه فكان يأتي أحدهم فينظر إلى الطير، فإن كان سميناً ذبحه وإلاَّ أرسله فإذا سمن أتاه، فقالوا: هذا الطعام فأين الشراب؟ فأمر موسى فضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً فشرب كل سبط من عين، فقالوا: هذا الشراب فأين الظل؟ فظلل عليه الغمام، فقالوا: هذا الظل فأين اللباس؟ فكانت ثيابهم تطول معهم كما تطول الصبيان ولا يتخرق لهم ثوب فذلك قوله تعالى: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴾ قال ابن عباس: خلق لهم في التيه ثياب لا تخْرق ولا تدْرن (لا تدرْن: أي لا يصيبها وساخة ولا قذارة، والدرن: الوسخ.)، قال ابن جريج: فكان الرجل إذا أخذ من المن والسلوى فوق يوم فسد إلاَّ أنهم يأخذون في يوم الجمعة طعام يوم السبت فلا يصبح فاسداً.

وقوله تعالى: ﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ أمر إباحة وإرشاد وامتنان، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾البقرة: ٥٧ أي: أمرناهم بالأكل مما رزقناهم وأن يعبدوا، كما قال:﴿ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ﴾سبأ: ١٥

فخالفوا وكفروا فظلموا أنفسهم. هذا مع ما شاهدوه من الآيات البينات، والمعجزات القاطعات، وخوارق العادات، ومن ههنا تتبين فضيلة أصحاب محمد (ص) ورضي عنهم على سائر أصحاب الأنبياء، في صبرهم وثباتهم، وعدم تعنتهم مع ما كانوا معه في أسفاره وغزواته، منها عام تبوك في ذلك القيظ والحرّ الشديد والجهد، لم يسألوا خرق عادة ولا إيجاد أمر مع أن ذلك كان سهلاً

على النبي (ص)، ولكن لما أجهدهم الجوع سألوه في تكثير طعامهم فجمعوا ما معهم فجاء قدْر مبرك الشاة فدعا الله فيه وأمرهم فملأوا كل وعاء معهم، وكذا لما احتاجوا إلى الماء سأل الله تعالى فجاءتهم سحابة فأمطرتهم فشربوا وسقوا الإبل وملأوا أسقيتهم ثم نظروا فإذا هي لم تجاوز العسكر.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾

البقرة ٥٨-٥٩

يقول تعالى لائماً على نكولهم عن الجهاد، ودخولهم الأرض المقدسة، لما قدموا من بلاد مصر صحبة موسى (ع) فأمروا بدخول الأرض المقدسة، التي هي ميراث لهم عن أبيهم إسرائيل، وقتال من فيها من العماليق الكفرة، فنكلوا عن قتالهم وضعفوا واستحسروا، فرماهم الله في التيه عقوبة لهم، كما ذكره تعالى في سورة المائدة، ولهذا كان أصح القولين إن هذه البلدة هي (بيت المقدس) كما نص على ذلك غير واحد، وقد قال الله تعالى حاكياً عن موسى: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ ﴾المائدة: ٢١ الآيات. وقال آخرون: هي (أريحاء) وهذا بعيد لأنها ليست على طريقهم وهم قاصدون بيت المقدس لا أريحاء، وأبعد من ذلك قول من ذهب إلى أنها (مصر) حكاه الرازي في تفسيره، والصحيح الأول أنها بيت المقدس، وهذا كان لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع يوشع بن نون (ع)، ولما فتحوها أمروا أن يدخلوا الباب ـ باب البلد ـ (سجداً) أي: شكراً لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر، ورد بلدهم وإنقاذهم من التيه والضلال. قال العوفي في تفسيره عن ابن عباس: ﴿ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾ أي: ركعاً، وقال الحسن البصري: أمروا أن يسجدوا على وجوههم حال دخولهم واستبعده الرازي، وحكي عن بعضهم أن المراد ههنا بالسجود الخضوع لتعذر حمله على حقيقته، وقال السّدي: عن عبدالله بن مسعود: قيل لهم ادخلوا الباب سجداً مقنعي رؤوسهم أي رافعي رؤوسهم خلاف ما أمروا.

وقوله تعالى: ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾ الأعراف: ١٦١

قال ابن عباس: مغفرة استغفروا، وقال الضحّاك عن ابن عباس ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾ قال: قولوا هذا الأمر حق كما قيل لكم، وقال الحسن وقتادة: أي احطط عنا خطايانا ﴿ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ . وقال: هذا جواب الأمر، أي إذا فعلتم ما أمرناكم، غفرنا لكم الخطيئات، وضاعفنا لكم الحسنات. وحاصل الأمر أنهم أمروا أن يخضعوا لله تعالى عند الفتح بالفعل والقول، وأن يعترفوا بذنوبهم ويستغفروا منها، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يظهر عليه الخضوع جداً عند النصر، كما روي أنه كان يوم الفتح (فتح مكة) داخلاً إليها من الثنية العليا وإنه لخاضع لربه حتى أن عثنونه ليمس مورك رحله شكراً لله على ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ ﴾ روى البخاري عن النبي (ص): «قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة، فدخلوا يزحفون على أستاههم، فبدلوا وقالوا حبة في شعرة». وقال الثوري عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا ﴾ قال: ركعاً من باب صغير، فدخلوا من قبل أستاههم، وقالوا حنطة فذلك قوله تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ ﴾ .

وحاصل ما ذكره المفسّرون وما دلّ عليه السياق أنهم بدّلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل، فأُمروا أن يدخلوا سجداً فدخلوا يزحفون على أستاههم رافعي رؤوسهم، وأُمروا أن يقولوا حطة أي أحطط عنا ذنوبنا وخطايانا فاستهزأوا فقالوا حنطة في شعيرة، وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة، ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم وهو خروجهم عن طاعته، ولهذا قال: ﴿ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴾. وقال الضّحاك عن ابن عباس: كل شيء في كتاب الله من الرجز يعني به العذاب، وقال أبو العالية: الرجزُ الغضبُ، وقال سعيد بن جبير: هو الطاعون، لحديث: «الطاعون رجز عذاب عُذّب به من كان قبلكم».

﴿ وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي

﴿ ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾البقرة ٦٠يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في إجابتي لنبيكم موسى (ع)، حين استسقاني لكم وتيسيري لكم الماء، وإخراجه لكم من حجر يحمل معكم، وتفجيري الماء لكم منه من اثنتي عشرة عيناً، لكل سبط من أسباطكم عينٌ قد عرفوها، فكلوا من المن والسلوى واشربوا من هذا الماء الذي أنبعته لكم، بلا سعي منكم ولا كد، واعبدوا الذي سخّر لكم ذلك،﴿ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ولا تقابلوا النعم بالعصيان فتُسْلَبوها. وقد بسطه المفسّرون في كلامهم كما قال ابن عباس (ع) : وجعل بين ظهرانيهم حجر مربع، وأمر موسى (ع) فضربه بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً في كل ناحية منه ثلاث عيون، وأعلم كل سبط عينهم يشربون منها، وقال قتادة: كان حجراً طورياً ـ من الطور ـ يحملونه معهم حتى إذا نزلوا ضربه موسى بعصاه، وقيل: هو الحجر الذي وضع عليه موسى ثوبه حين اغتسل فقال له جبريل ارفع هذا الحجر فإن فيه قدرة، ولك فيه معجزة، فحمله في مخلاته. قال الزمخشري: ويحتمل أن تكون (اللام) للجنس لا للعهد، أي اضرب الشيء الذي يقال له الحجر، وعن الحسن: لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه، قال: وهذا أظهر في المعجزة وأبين في القدرة، فكان يضرب الحجر بعصاه فينفجر ثم يضربه فييبس، وقال الضحاك، قال ابن عباس: لما كان بنو إسرائيل في التيه شق لهم من الحجر أنهاراً، وقال الثوري عن ابن عباس: قال ذلك في التيه ضرب لهم موسى الحجر فصار منه اثنتا عشرة عيناً من ماء لكل سبط منهم عين يشربون منها.

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾البقرة٦١

يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في إنزالي عليكم المنّ والسلوى طعاماً طيباً نافعاً هنيئاً سهلاً، واذكروا ضجركم مما رزقناكم وسؤالكم موسى الأطعمة الدنيئة من البقول ونحوها مما سألتم، قال الحسن البصري: فبطروا وذكروا عيشهم الذي كانوا فيه، وكانوا قوماً أهل أعداس

وبصل وبقل وفوم، فقالوا: ﴿ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ ﴾ وإنما قالوا على طعام واحد هم يأكلون المن والسلوى لأنه لا يتبدّل ولا يتغير كل يوم فهو مأكل واحد، وأما الفوم فقال ابن عباس: الثوم، وقال آخرون: الفوم: الحنطةُ وهو البُرُّ الذي يعمل منه الخبز، روي أن ابن عباس سئل عن قول الله: ﴿وَفُومِهَا﴾ ما فومها؟ قال: الحنطة. قال ابن عباس: أما سمعت قول أحيحة بن الجلاح وهو يقول:

قد كنت أغنى الناس شخصاً واحداً ... ورد المدينة عن زراعة فوم

وقال ابن جرير، عن ابن عباس في قول الله تعالى: ﴿وفومها﴾ قال: الفوم الحنطة بلسان بني هاشم، وقال الجوهري: الفوم الحنطة، وحكى القرطبي عن عطاء وقتادة: أن الفوم كل حب يختبز، قال، وقال بعضهم: هو الحمص لغة شامية، قال البخاري: وقال بعضهم الحبوب التي تؤكل كلها فوم، وقوله: ﴿ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ﴾؟ فيه تقريع لهم وتوبيخ على ما سألوا من هذه الأطعمة الدنيئة مع ما هم فيه من العيش الرغيد والطعام الهنيء الطيب النافع. وقوله تعالى: ﴿ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا ﴾ هكذا هو منون مصروف، وقال ابن عباس: مصراً من الأمصار. والمعنى أن هذا الذي سألتم الله فيه. ولهذا قال: ﴿ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡ ﴾

أي: ما طلبتم، ولما كان سؤالهم هذا من باب البطر والأشر ولا ضرورة فيه لم يجابوا إليه، والله أعلم.

﴿ سَأَلۡتُمۡۚ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴾ البقرة٦١

يقول تعالى: ﴿ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ ﴾ أي وضعت عليهم وألزموا بها شرعاً وقدراً، أي لا يزالون مستذلين من وَجَدهم استذلهم وأهانهم وضربَ عليهم الصغارَ، وهم

مع ذلك في أنفسهم أذلاء مستيكنون. يعطون الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، قال الضحّاك: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ قال: الذل، وقال الحسن: أذلهم الله فلا منعة لهم وجعلهم تحت أقدام المسلمين، ولقد أدركتهم هذه الأمة وإن المجوس لتجيبهم الجزية، وقال أبو العالية والسّدي: المسكنةُ الفاقةُ، وقوله تعالى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ استحقوا الغضب من الله، وقال ابن جرير: يعني بقوله: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: انصرفوا ورجعوا، ولا يقال باء إلاَّ موصولاً إما بخير وإما بشر، يقال منه: باء فلان بذنبه يبوء به، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾المائدة: ٢٩

يعني تنصرف متحملهما وترجع بهما قد صارا عليك دوني، فمعنى الكلام رجعوا منصرفين متحملين غضب الله قد صار عليهم من الله غضب ووجب عليهم من الله سخط.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾البقرة ٦١، يقول الله تعالى هذا الذي جازيناهم من الذلة والمسكنة وإحلال الغضب بهم من الذلة، بسبب استكبارهم عن اتباع الحق، وكفرهم بآيات الله، وإهانتهم حمَلة الشرع وهم (الأنبياء) وأتباعهم، فانتقصوهم إلى أن أفضى بهم الحال إلى أن قتلوهم فلا كفر أعظم من هذا، إنهم كفروا بآيات الله وقتلوا أنبياء الله بغير الحق، ولهذا جاء في الحديث المتفق على صحته أن رسول الله (ص) قال: «الكبر بطرُ الحق وغَمْطُ الناس». يعني رد الحق وانتقاص الناس والازدراء بهم والتعاظم عليهم. ولهذا لما ارتكب بنو إسرائيل ما ارتبكوه من الكفر بآيات الله، وقتلهم أنبياءه، أحل الله بهم بأسه الذي لا يُرد، وكساهم ذلاً في الدنيا موصولاً بذل الآخرة جزاءً وفاقاً. عن عبدالله بن مسعود قال: «كانت بنو إسرائيل في اليوم تقتل ثلثمائة نبي ثم يقيمون سوق بقلهم من آخر النهار». وعن عبدالله بن مسعود: أن رسول الله (ص) قال: «أشدُّ الناس عذاباً يوم القيامة رجلٌ قتله نبي أو قَتَل نبياً، وإمام ضلالة وممثل من الممثلين»، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾وهذه علة أخرى فيم جازاتهم بما جوزوا به أنهم كانوا يعصون ويعتدون، فالعصيان فعل المناهي، والاعتداء المجاوزة في حد المأذون فيه والمأمور به، والله أعلم.

*** الشيخ مغنية:**

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾البقرة ٤٩-٥٠

اللغة: الآل مأخوذ من آل يؤول بمعنى رجع، فكل من رجع إلى غيره بنسب، أو رأي، أو عقيدة فهو من آل من يرجع إليه، ثم كثر استعمال الآل في أهل بيت الرجل الذي هم منه، حتى اختصّ عرفاً بهذا المعنى والمراد بآل فرعون هنا أتباعه الذين كانوا يباشرون التنكيل بالإسرائيليين بأمر منه وفرعون لقب لملك مصر في ذاك العهد، ككسرى الفرس، وقيصر الروم، ونجاشي الحبشة، وتبّع اليمن، ومعنى البلاء الاختبار والامتحان بما ينفع أو يضر، قال تعالى: ﴿ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾الأعراف: ١٦٨ .

الإعراب: فرعون ممنوع من الصرف للعلمية العجمية، وسوء العذاب مفعول مطلق، لأن معنى يسومونكم، يعذبونكم.

المعنى: بعد أن ذكّر الله سبحانه بني إسرائيل بنعمه عليهم بنحو الإجمال ذكّرهم بها على سبيل التفصيل، وأولى هذه النعم التي أشار إليها هي نجاتهم من فرعون وأتباعه الذين أذاقوا اليهود أشد العذاب، أي يقتلون الذكور من نسلكم، ويستبقون الإناث أحياء ليتخذوهن خدماً. هذا، إلى أن المصريين كانوا يسخرون اليهود في قطع الأشجار والأحجار ونقلها وحفر الأقنية، وما إلى ذلك من الأعمال الشاقة وجاء الخطاب لليهود المعاصرين للنبي محمد (ص) لأنهم على دين أسلافهم وراضون بعملهم، ومن أحب عمل قوم شاركهم فيه.

﴿ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾: أي أن الله سبحانه قد اختبركم يا بني إسرائيل في السراء والضراء معاً، لتعرفوا: هل تجاهدون وتصبرون في الجهاد صبر الكرام في الأولى، وتشكرون على الثانية، أو أنكم تخضعون وتستسلمون في الشدة، وتكفرون وتطغون في الرخاء شأن كل جبان لئيم. وتجدر الإشارة

إلى أن الله سبحانه لا يختبر عبده ليعلم ما هو عليه فإنه يعلم بكل كائن قبل أن يكون ولكنه يختبر العبد، لإقامة الحجة عليه، إذ لا دعوة لمن لا حجة له حتى ولو كان المدعى به ثابتاً في علم الله تعالى وأشار سبحانه على النعمة الثانية لبني إسرائيل بقوله: ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ البقرة: ٥٠

أي فضلنا البحر وجعلناه اثني عشر طريقاً على عدد الأسباط، والباء من «بكم» للسببية أي بسببكم، والسبط هو ولد الولد والأسباط من بني إسرائيل عشائر من نسل يعقوب فقد كان اليهود في غاية الضعف والمذلة، وكان خصمهم في غاية القوة والعزة، فعكس الله الآية على يد نبيه موسى (ع) فصاروا هم الأعزاء، وخصمهم الذليل، وعاينوا ﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ ذل من بالغ في إذلالهم وهلاك من حاول إهلاكهم، وبهذا لزمتهم الحجة، ووجب عليهم أن يتعظوا ويعتبروا ولا يعاملوا غيرهم بما كان يعاملهم الغير فتدور الدائرة عليهم كما دارت على فرعون لا محالة فإن للباطل جولة ثم يضمحل.

﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

اللغة: مصدر واعدنا المواعدة، أي المفاعلة بين اثنين، كما لو تواعد اللقاء في مكان معيّن، ووجه المفاعلة هنا أن الله سبحانه وعد موسى الوحي، وموسى (ع) وعد الله المجيء. أما الوعد فهو مصدر وعَدَ، ويكون من طرفٍ واحد، ويصح استعمال واعدنا بمعنى وعَدنا. ولفظة موسى تطلق على آلة الفولاذ التي يحلق بها الشّعر، وتذكّر وتؤنث، والجمع مواسن ومواسيات، وهي بهذا المعنى عربية لا أعجمية أما لفظة موس التي يُراد بها ابن عمران (ع) فهي أعجمية لا عربية، مركبة من كلمتين في اللغة القبطية وهما (مو): اسم

للماء. موسى (ع): اسم للشجر ويكون معنى موسى: ماء الشجر. ووجه التسمية على ما جاء في مجمع البيان أن جواري آسيا امرأة فرعون خرجن للاغتسال بماء الشجر فوجدنا التابوت التي فيه موس عند ماء الشجر، فصحبنه معهنّ. والفرقان ما يفصل بين شيئين، والمراد به هنا الذي يفصل بين الحق والباطل.

والإعراب: يتبع صحة المعنى، ولو كان أربعين مفعولاً به للزم تعدد الوعد من الله لموسى بتعدد الليالي، لأن الوعد هو العامل بالليالي ومعلوم أن الله سبحانه وتعالى لم يصدر منه لموسى إلا وعدٌ واحد مؤقّت بانقضاء أربعين ليلة، وعليه تكون كلمة انقضاء المحذوفة مفعولاً به ثانياً لواعدنا، وبعد حذفتها أقيمت أربعين مقامها، وأعربت إعرابها تماماً كما تقول: اليوم ثلاثة من الشهر أي تمام الثلاثة، لأن الواحد غير الثلاثة. وليلة تمييز.

المعنى: بعد أن أهلك الله فرعون ومن معه تنفس الإسرائيليون الصعداء، وعادوا إلى مصر آمنين، كما في المجمَع، ولم تكن التوراة قد نزلت بعد على موسى، فسألوه أن يأتيهم بكتاب من ربهم، فوعده الله أن ينزل عليه التوراة، وضرب له ميقاتاً، فقال له موسى: إن ربي وعدني بكتاب، فيه بيان ما يجب عليكم أن تفعلوه وتذروه، وضرب لهم ميقاتاً أربعين ليلة، وهذه الليالي على ما قيل هي ذو القعدة وعشر ذي الحجة وذهب موسى إلى ربه ليأتي قومه بالكتاب، واستخلف عليهم أخوه هارون، وقبل أن يمضي الميقات الموعود على غيابه عبدوا العجل من دون الله وظلموا بذلك أنفسهم وهذا هو المعنى الظاهر من قوله سبحانه: ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ وبعد أن رجع موسى إلى قومه تابوا من شركهم، ورجعوا إلى ربهم فقبل الله توبتهم وهذه نعمة ثالثة من الله عليهم وإليها أشارت الآية: ثم عفونا عنكم بعد ذلك. أما النعمة الرابعة فهو كتاب الله ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ وهذا الكتاب هو التوراة الجامعة لبيان الحق والباطل والحلال والحرام. أما عطف الفرقان على الكتاب فهو من باب

عطف الصفة على الموصوف، كقوله سبحانه في الآية ٤٨ من الأنبياء ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾الأنبياء: ٤٨ فالله عزّ وجلّ ذكر الإسرائيليين في الآيات المتقدمة بأربع نِعم: إنجائهم من ذبح الأبناء واستحياء النساء، ثم هلاك فرعون، ثم العفو عنهم، ثم إيتاء موسى التوراة.

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾البقرة ٥٥-٥٧

اللغة: البارئ هو الخالق، والمن: مادة لزجة تشبه العسل، والسلوى: السّمان: طائر معروف، والغمام: اسم جنس مفرده غمامة، فالتاء للإفراد لا للتأنيث تماماً كحمَام وحمامة.

الإعراب: يا قوم: منادى مضاف إلى ياء المتكلم، ثم حذفت الياء، واجتزئ عنها بالكسرة، وجهرة: قائم مقام المفعول المطلق، وكلوا: فعل أمر. والجملة: محل نصب مفعول لفعل محذوف، تقديره قلنا كلوا.

المعنى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ﴾: كل معنى يسبق إلى الفهم لمجرد سماع اللفظ لا يحتاج إلى تفسير، بل تفسيره وشرحه ضرب من الفضول.

﴿فَاقْتُلُواْ أَنْفُسَكُمْ﴾: القتل ظاهر في إزهاق الروح، ولا سبب موجب لصرفه وتأويله بمخالفة الهوى وتذليل النفس بالاعتراف بالذنب والخطيئة، والمراد بالأنفس هنا بعضها، أي ليقتل بعضكم بعضاً، فيتولى البريء منكم الذي لم يرتد عن دينه بعبادة العجل قتل من ارتد عن دينه تماماً كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ﴾ اي فليسلم بعضكم على بعض، وقيل إن المراد التشديد والمبالغة في طاعة الله من قوله فاقتلوا أنفسكم وهو خلاف

الظاهر. وتمضي الآيات في تعداد مساوئ الإسرائيليين ـ ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾: حين جاءه موسى بالتوراة قال له جماعة منهم: لا نصدقك أن هذا الكتاب من عند الله حتى نرى الله عياناً لا حجاب بيننا وبينه، ويخبرنا وجهاً لوجه أنه أرسلك بهذا الكتاب وقال بعض في هذا العصر لا وجود إلا لما نراه بالعين ونلمسه باليد ونشمه بالأنف، وهكذا يكرّر التاريخ صور المكابرة ومعاندة الحقّ في كل جيل.

﴿ فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾: أي أن عذاباً من السماء أحاط بالذين قالوا لموسى: لن نؤمن لك حتى نرى الله، فأهلكهم على مرأى من أصحابهم الذين لم يعاندوا، ويسألوا مثل ذلك.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾: قال بعض المفسرين، ومنهم الشيخ محمد عبده كما في تفسير المنار قالوا: إن الله سبحانه لم يرجعهم إلى هذه الحياة ثانية بعد أن أخذتهم الصاعقة وإن المراد ببعثهم كثرة النسل منهم. وقال آخرون: كلا إن الآية على ظاهر دلالتها، وإن الذين أعيدوا هم الذين أخذتهم الصاعقة بالذات: وهذا هو الحق، حيث يجب الوقوف عند الظاهر إلا مع السبب الموجب للتأويل ولا سبب ما دامت الإعادة ممكنة في نظر العقل وبديهة أن الذي وقع لا يكون مستحيلاً.

فائدة:

قال الطبرسي في مجمعه من الإمامية والرازي في تفسيره الكبير من السنّة قالا: إن الله سبحانه جعل توبة بني إسرائيل بنفس القتل بحيث لا تتم التوبة إلا بقتل النفس، لا أنهم يتوبون أولاً، ثم يقتلون أنفسهم بعد التوبة.

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴾: جرى ذلك حين خرج الإسرائيليون من مصر، وتاهوا في صحراء سيناء حيث لا بنيان ولا عمران فشكوا إلى موسى حرّ الشمس فأنعم الله عليهم بالغمام يظلّلهم، ويقيهم

حرّ الهاجرة وأنعم عليهم أيضاً بالمن والسلوى يأكلون منهما بالإضافة إلى ما تيسّر لهم من الأطعمة.

﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ نفي المظلومية عن الله سبحانه وتعالى، تماماً كنفي الولد والشريك عنه من باب السالبة بانتفاء الموضوع على حد تعبير أهل المنطق أما ظلم اليهود لأنفسهم فلسفههم وجحودهم بأنعم الله الذي لا تنفعه طاعة من أطاع ولا تضره معصية من عصى، وإنما منفعة الطاعة تعود إلى الطائع، ومضرّة المعصية إلى العاصي.

قال أمير المؤمنين علي (ع) يا بن آدم إذا رأيت ربك يتابع نعمه عليك، وأنت تعصيه فاحذره وقال (ع) إن الله افترض عليكم الفرائض فلا تضيعوها، وحدّ لكم حدوداً فلا تعتدوها ونهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء، ولم يدَعَهَا نسياناً فلا تتكلفوها.

فحريّ بنا أن نسكت عما سكت الله ولا نقحم أنفسنا في تفسير عدد الذين قتلوا أنفسهم للتوبة من عبادة العجل وإحصائهم وكيفية نزول المن والسّلوى من السماء مما لا نص قطعي ولا ظني يدل عليه.

وتجدر الإشارة إلى أن المراد من قوله تعالى: ﴿ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ ﴾ وقوله ﴿بَعَثۡنَٰكُم﴾: المراد من كان في عصر موسى (ع) الذين قالوا له: حتى نرى الله جهرة فلا يشمل الخطاب موسى، ولا من لم يقل بهذه المقولة وبالأولى أن لا يشمل حقيقة اليهود الذين كانوا في عهد محمد (ص) وإنما وجه الخطاب إليهم تجوّزاً وتوسعاً في الاستعمال بالنظر إلى أنهم من نسل الذين قالوا: حتى نرى الله جهرة وثبوت ذلك محال عقلاً عند الإمامية والمعتزلة إذ لا تجوز الرؤية البصرية على الله بحال، لأنه ليس بجسم ولا حالاً في جسم ولا في جهة بخلاف الأشاعرة الذين قالوا إن رؤية الله بالبصر جائزة عقلاً، لأنه موجود، وكل موجود يمكن رؤيته.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾

البقرة ٥٨-٥٩

اللغة: للقرية في اللغة معنيان: المكان الذي يجتمع فيه الناس أي مكان لا يختص في برّ ولا بحر والمعنى الثاني مسكن النمل، وعلى هذا تكون المدينة من معاني القرية حقيقة، ولكن كثر استعمالها في البلد الصغير، فتغلب هذا المعنى على غيره من المعاني، بحيث إذا أطلق لفظ القرية فلا يفهم منه عرفاً إلا البلد الصغير وقيل: إن المراد بالقرية هنا بيت المقدس.

ومعنى الحط النزول والهبوط، ومعنى السجود: وضع الجبهة على الأرض، والمراد به هنا معناه المجازي، وهو الخضوع والتواضع، لأن دخولهم الباب، وجبهتهم على الأرض متعذّر، فتعيّن الحمل على الخشوع، والرجز بكسر الراء الشيء القذر والمراد به هنا العذاب.

الإعراب: القرية: عطف بيان من هذا ورغداً نائب عن المفعول المطلق، أي أكلاً رغداً، وسجّداً حال من واو الجماعة في ادخلوا، وهو مصدر بمعنى اسم الفاعل، كعدل بمعنى عادل، وحطة خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير مسألتنا أو أمرنا حطة، تماماً مثل: صبر جميل أي حالنا صبرٌ جميل، مع العلم بأن النصب جائز أيضاً.

المعنى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا ﴾: وقال صاحب مجمع البيان: (أجمع المفسرون على أن المراد بالقرية هنا: بيت المقدس، ويؤيده قوله تعالى في موضع آخر: ادخلوا الأرض المقدسة).

﴿ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾: أي ادخلوا ناكسي الرؤوس خاضعين خاشعين لله، وفي البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي: (الباب هو أحد أبواب بيت المقدس، ويدعى باب حطة). ﴿ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ ﴾ الأعراف: ١٦١ : بعد أن أمرهم

الله سبحانه أن يدخلوا بخضوع وخشوع، أمرهم أيضاً أن يقرنوا الخشوع بقول التضرع والتذلل مثل نستغفر الله، ونسأله التوبة، ليحصل التوافق والتلاؤم بين القول والفعل، تماماً كما تقول في ركوعك سبحان ربي العظيم وفي سجودك سبحان ربي الأعلى وليس من الضروري أن يتلفظ بلفظ حطة بالذات، وعلى سبيل التعبد، كما قال كثير من المفسرين، ولا أن يكون المراد من حطة العمل الذي يحط الذنوب كما في تفسير المنار نقلاً عن محمد عبده، حيث قال: إن الله لا يكلفهم باللفظ إذ لا شيء أيسر على الإنسان منه ويلاحظ بأن الله قد كلف عباده بالكلام والتلفظ في الصلاة، وأعمال الحج، وفي الأمر بالمعروف، ورد التحية، وأداء الشهادة، بل إخراج الحروف من مخارجها في بعض الموارد.

﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ ﴾ أي أنهم أُمروا أن يقولوا ما يستحقون به العفو والصفح والثواب، ولكنهم حالفوا وقالوا ما يستوجبون عليه المؤاخذة والعقاب.

﴿ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾: تقدم أن المراد بالرجز العقاب والعذاب وقد سكت الله سبحانه عن نوع العذاب وحقيقته، ولم يبين لنا: هل هو الطاعون، كما قال البعض، أو الثلج كما ذهب آخرون... وأيضاً سكت عن عدد الذين هلكوا بهذا العذاب: هل هم سبعون ألفاً، أو أكثر، أو أقل؟ لذلك نسكت نحن كما سكت الله عنه، ولا نتكلف بيانه كما تكلفه غيرنا اعتماداً عن قول ضعيف، أو رواية متروكة.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾ البقرة ٦٠

اللغة: الاستسقاء طلب الماء، والانفجار والانبجاس بمعنى واحد، لأن الله

استعملهما في قصة واحدة، والمشرب مكان الشرب كالمأكل مكان الأكل، والمسكن مكان السكن. والعيّ قيل معناه مجاوزة الحدّ في كل شيء، ثم كثر استعماله في الفساد، فتغلب على غيره من سائر الأفراد.

الإعراب: اثنتا عشرة كلمتان نزلتا منزلة الكلمة الواحدة، أعرب الصدر لمكان الألف رفعاً، والياء جراً ونصباً، وبني العجز لأنه بمنزلة نون الاثنين، هكذا قال النحاة، وعيناً تمييز.

المعنى: ﴿وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ﴾: لا تأويل في هذه الآية، فإن المراد منها هو نفس المعنى المتبادر إلى الفهم من ظاهرها، وقال الرازي: (أجمع جمهور المفسرين على أن ذلك كان في التيه / أي صحراء سيناء.. ومهما يكن فإن الله سبحانه بعد أن ظلّلهم بالغمام وأطعمهم من المن والسلوى سقاهم الماء أيضاً، فأجرى لهم اثنتي عشرة عيناً بقدر عشائرهم، فاختصت كل عشيرة بعينها حتى لا يقع بينهم التشاجر والتنازع على الماء.

وتسأل: كيف تدفقت العيون من حجر يحمله الإنسان في يده؟ وهل يكون المحال ممكناً؟ هل يوجد شيء من لا شيء، أو الكثير من القليل؟ يحفر الإنسان آلاف الأمتار في الأرض، ومع ذلك لا يخرج الماء إذا لم يكن موجوداً في مكان الحفر، فكيف نبع الماء من حجر لا عين ولا أثر فيه للماء؟

الجواب: لا تفسير من العلم والطبيعة لهذا مطلقاً، لا تفسير إلا بالمعجز وخوارق العادات، وإلا بقوله جلت قدرته: كن فيكون، تماماً كانفلاق البحر، ووقوف مائه كالجبال، ونزول المن والسلوى من السماء وجعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم، وولادة عيسى بلا دنس، وإحيائه الموتى، وخلقه الطير من الطين،إلى غير ذلك، فمن آمن بالله وقدّره حق قدْره اقتنع مكتفياً بهذان ومن جحد وعاند فلا كلام في الفرع بعد أن أنكر الأصل. وإني على يقين أن الذين يطلبون تفسيراً علمياً ودقيقياً لكل شيء ، إن هؤلاء قد مرّ في حياتهم العديد من الحوادث التي لا يجدون تفسيراً لها في شيء إلا في الغيب وإرادة

الله: ولكنهم لا يشعرون.

وتجدر الإشارة هنا إلى الملا صدرا الفيلسوف العظيم الذي سبق زمانه بمئات السنين، حيث لا أدوات ومختبرات، فإنه قال فيما قال عند تفسير هذه الآية ما نصه بالحرف الواحد: (إن مادة العناصر قابلة لأن تكون منها صورة غير متناهية على التعاقب، فيجوز أن يستحيل بعض أجزاء الحجر ماء).

ومحل الشاهد الذي يجب الوقوف عنده هو قوله جازماً: (يجوز أن يستحيل بعض أجزاء الحجر ماء) يشير بهذا إلى التأكيد على نظرية التطور التي اكتشفها هو واهتدى إليها قبل دارون بثلاثة قرون، على أن دارون خصص النظرية بالأعضاء العضوية فقط. أما صدر المتألهين فقد عممها لجميع الكائنات، حتى الجماد، كما رأيت من جواز استحالة الحجر إلى الماء.. وكم لهذا العظيم من اكتشافات ولو كان غربياً لما كان انشتين اشهر وأعرف، ولكن أنشتين غربي، بل يهودي أيضاً.. والملا صدرا شرقي، بل شيعي أيضاً.

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾البقرة٦١

اللغة: البقل نبت لا ساق له، كالنعناع والكرات، والقثاء بالكسر نوع من الخيار معروف، والفوم الحنطة، والأدنى الأقرب، والمراد به هنا الخسيس من الدناءة، والمصر البلد الكبير، وضربت، أي فرضت.

الإعراب: يخرج مضارع مجزوم جواباً لفعل الأمر، وهو ادع، وذلك مبتدأ وخبره بأنهم كانوا، ومثله ذلك بما عصوا.

المعنى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ ﴾: أي قاله أسلافكم

لموسى، وهم في التيه. حيث سئموا من المواظبة على أكل المن والسلوى، وتشوّفوا إلى عيشهم الأول في مصر. وليس في هذا الطلب معصية، فإن كل إنسان يطلب التنوع في الطعام، لأنه يفتح الشهوة، والرغبة في الاستكثار، والله سبحانه قد أحلّ الطيبات من الرزق لعباده.. وعلى هذا فإن الآية لم تسق للذم، بل للتعجب من تركهم العيش الحاصل عفواً صفواً، وطلبهم العيش الذي لا يحصل إلا بالكد والجد.

- ﴿ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾: الباء في هذا المورد تدخل على الأفضل؛ تقول: لا تبدل النحاس بالذهب، ولا يجوز أن تقول: لا تبدل الذهب بالنحاس، والدليل هذه الآية الكريمة.. ولكن الناس يعكسون. وعلى أية حال فإن المهم معرفة المراد، ووضوح القصد.

- ﴿ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾: أي قال موسى لهم ذلك.. والظاهر أن المراد مصر من الأمصار يحقق لهم هذه الأمنية، لأن سبحانه لم يبين ويعين مصراً خاصاً: وتفسير القرآن الكريم غير التعليلات النحوية التي يصحّح بها كلام سيبويه ونفطوية.

- ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ ﴾: كانوا أعزاء مستقلين يأتيهم رزقهم رغداً، فأبوا إلا الزراعة والصناعة والتجارة، وكل ذلك يستدعي التنافس والحروب، وهي تستدعي الفشل وذهاب الريح.

- ﴿ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾: وبديهة أن قتل الأنبياء لا يكون إلا بغير الحق، وكأن الله سبحانه أراد بذكر القيد التشنيع بهم، وأن القتل منهم لم يكن عن خطأ واشتباه، بل عن إصرار وتعمّد للباطل والضلال. فلا بدع إذا أساء يهود المدينة إلى محمد (ص).. لأنهم امتداد لذلك الأصل والعرق.

*** سيد قطب:**

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ البقرة ٤٩

إنه يعيد على خيالهم ويستحي في مشاعرهم صورة الكرب الذي كانوا فيه، ويرسم أمامهم مشهد النجاة كما رسم أمامهم مشاهد العذاب.

يقول لهم: واذكروا إذ نجيناكم من آل فرعون حالة ما كانوا يديمون عذابكم ويسومونكم (من سام الماشية» أي جعلها سائمة ترعى دائماً) وكأن العذاب كان هو الغذاء الدائم الذي يطعمونهم إياه!! ثم يذكر لوناً من هذا العذاب هو تذبيح الذكور واستيحاء الإناث كي يضعف ساعد بني إسرائيل وتثقل تبعاتهم!

وقبل أن يعرض مشهد النجاة يعقّب بأن ذلك التعذيب كان فيه بلاء من ربهم عظيم. ليلقي في حسّهم أن إصابة العباد بالشدّة هي امتحان وبلاء، واختبار وفتنة وأن الذي يستيقظ لهذه الحقيقة يفيد من الشدّة، ويعتبر بالبلاء، ويكسب من ورائهما حين يستيقظ، فالألم لا يذهب ضياعاً إذا أدرك صاحبه أنه يمرّ بفترة امتحان لها ما بعدها إن أحسن الانتفاع بها، والألم يهون على النفس حين تعيش بهذا التصوّر وحين تدخّر ما في التجربة المؤلمة من زاد للدنيا بالخبرة والمعرفة والصبر والاحتمال ومن زاد للآخرة باحتسابها عند الله، وبالتضرّع لله وبانتظار الفرج من عنده وعدم اليأس من رحمته.. ومن ثم هذا التعقيب الموحى: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

فإذا فرغ من التعقيب جاء بمشهد النجاة بعد مشاهد العذاب في قوله تعالى ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾.

وقد وردت تفصيلات هذه النجاة في السور المكية التي نزلت من قبل، أمّا هنا فهو يذكرهم بها في صورة مشهد، ليستعيدوا تصوّرها، ويتأثروا بهذا التصوّر وكأنهم هم الذين كانوا ينظرون إلى فرق البحر، ونجاة بني إسرائيل بقيادة موسى (ع) على مشهد منهم ومرأى! وخاصية الاستحياء هذا من أبرز خصائص التعبير القرآني العجيب.

ثم يمضي السياق قدماً مع رحلة بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر

ناجين:

﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ البقرة ٥١-٥٤

وقصة اتخاذ بني إسرائيل للعجل، وعبادته من غيبة موسى (ع) عندما ذهب إلى ميعاد ربه على الجبل (مفصله في سورة والمؤلف يترك التفصيل للمحل المناسب) ولكن أراد هنا أن يشير إلى أن الله أراد أن يُذكّر بني إسرائيل بانحدارهم إلى عبادة العجل بمجرد غيبة نبيهم، الذي أنقذهم باسم الله ومن آل فرعون يسومونهم العذاب .

ويصف حقيقة موقفهم في هذه العبادة ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ البقرة: ٥١

.. ومن أظلم ممّن يترك عبادة الله ووصيه نبيه ليعبد عجلاً جسداً، وقد أنقذه الله ممن كانوا يقدسون العجول.

ومع هذا فقد عفا الله عنهم، وآتى نبيهم الكتاب (التوراة) فيه فرقان بين الحق والباطل عسى أن يهتدوا إلى الحق البين بعد الضلال.

ولم يكن بد من التطهير القاسي، فهذه الطبيعة المنهارة الخاوية لا تقومها إلاّ كفارة صارمة وتأديب عنيف. عنيف في طريقته وفي حقيقته: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ﴾.

اقتلوا أنفسكم... ليقتل الطائع منكم العاصي، ليطهره ويطهر نفسه... هكذا وردت الروايات عن تلك الكفارة العنيفة.. وأنه لتكليف مرهق شاق، أن يقتل الأخ أخاه، فكأنما يقتل نفسه برضاه. ولكنه لذلك كانت تربية لتلك الطبيعة المنهارة الخوارة، التي لا يتماسك عن شر، ولا تتناهى عن نكر. ولو تناهوا عن المنكر في غيبة نبيهم ما عبدوا العجل.. وإذ لم يتناهوا بالكلام

فليتناهوا بالحسام، وليؤدوا الضريبة الفادحة الثقيلة التي تنفعهم وتربيهم! وهنا تدركهم رحمة الله بعد التطهير: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

ولكن إسرائيل هي إسرائيل! هي كثافة حس، ومادية فكر، واحتجاباً عن مسارب الغيب فإذا هم يطلبون أن يروا الله جهرة، والذي طلب هذا هم السبعون المختارون منهم، الذين اختارهم موسى لميقات ربه، ويرفضون الإيمان لموسى إلاّ أن يروا الله عياناً، والقرآن يواجههم هنا بهذا التجديف الذي صدر من آبائهم. لينكشف تعنتهم القديم الذي شابه تعنتهم الجديد مع الرسول الكريم وطلبهم الخوارق منه وتحريضهم بعض المؤمنين على طلب الخوارق للتثبث من صدقه: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ البقرة ٥٥-٥٧

إن الحسّ المادي الغليظ هو وحده طريقهم إلى المعرفة والآيات الكثيرة والنعم الإلهية والعفو والمغفرة... كلها لا تُغير من تلك الطبيعة الحسيّة، التي لا تؤمن إلاّ بالمحسوس والتي تظل مع ذلك تجادل وتماحل ولا تستجيب إلا تحت وقع العذاب والتنكيل، ممّا يوحي بأن فترة الإذلال التي قضوها تحت حكم فرعون الطاغية قد أفسدت فطرتهم إفساداً عميقاً. وليس أشد إفساداً للفطرة من الذل الذي ينشئه الطغيان الطويل، والذي يحطّم فضائل النفس البشرية، ويحلّل مقوّماتها، ويغرس فيها المعروف من طباع العبيد وتذكر الروايات أن الله ساق لهم الغمام يظللهم من الهاجرة. والصحراء بغير مطر ولا سحب جحيم يفور بالنار، ويقذف بالشواظ وهي بالمطر والسحاب رخية ندية تصح فيها الأجسام والأرواح... وتذكر الروايات كذلك أن الله سخر لهم «المنّ» يجدونه على الأشجار حلواً كالعسل، وسخر لهم «السلوى» وهو طائر السمان يجدونه بوفرة قريب المنال، وبهذا توافر لهم الطعام الجيد، والمقام

المريح أحلّت لهم هذه الطيبات... ولكن أتراهم شكروا واهتدوا.. إن التعقيب الأخير في الآية يوحي بأنهم ظلموا وجحدوا وإن كانت عاقبة ذلك عليهم فما ظلموا إلاّ أنفسهم.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾البقرة ٥٨-٥٩

وتذكير بعض الروايات أن القرية المقصودة هنا هي بيت المقدس، التي أمر الله بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر أن يدخلوها، ويخرجوا منها العمالقة الذين كانوا يسكنون بها، والتي نكص بنو إسرائيل عنها وقالوا: ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾المائدة: ٢٢. والتي قالوا بشأنها لنبيهم موسى (ع): ﴿ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾المائدة: ٢٤! ومن ثم كتب عليهم ربهم التّيه أربعين سنة حتى نشأ جيل جديد بقيادة يوشع بن نون، فتح المدينة ودخلها.. ولكنهم بدلاً من أن يدخلوها سجداً كما أمرهم الله، علامة على التواضع والخشوع، ويقولوا: حطة... أي حط عنا ذنوبنا واغفر لنا... دخلوها على غير الهيئة التي أمروا بها، وقالوا قولاً آخر غير الذي أمروا به... والسياق يواجههم بهذا الحادث في تاريخهم، وقد كان ممّا وقع بعد الفترة التي يدور عنها الحديث، ذلك أنه يعتبر تاريخهم كله وحدة قديمة كحديثة. ووسطه كطرفيه.. كله مخالفة وتمرد وعصيان وانحراف.

وأياً كان هذا الحادث، فقد كان القرآن يخاطبهم بأمر يعرفونه، ويذكرهم بحادث يعلمونه فلقد نصرهم الله فدخلوا القرية المعيّنة، وأمرهم أن يدخلوها في هيئة خشوع وخضوع ونعمته فتخالفوا عن هذا كله كعادة اليهود: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾ الأعراف ١٦٢ ويخص الذين ظلموا بالذكر إما لأنهم كانوا فريقاً منهم هو الذي بدل وظلم. وإما لتقرير وصف الظلم لهم

جميعاً، إذ كان قد وقع منهم جميعاً.

﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾

والرجز: العذاب، والفسوق المخالفة والخروج.. وكانت هذه واحدة من أفاعيل بني إسرائيل! وكما يسرّ الله لبني إسرائيل الطعام في الصحراء والظل في الهاجرة، كذلك أفاض عليهم الري بخارقة من الخوارق الكثيرة التي أجراها الله على يدي نبيه موسى (ع) والقرآن يذكرهم بنعمة الله عليهم في هذا المقام، وكيف كان مسلكهم بعد الإفضال والإنعام.

﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ البقرة ٦٠

لقد طلب موسى لقومه السُقيا، طلبها من ربه فاستجاب له، وأمره أن يضرب حجراً معيناً بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً بعدة أسباط بني إسرائيل. وكانوا يرجعون إلى اثني عشر سبطاً بعدد أحفاد يعقوب ـ وهو إسرائيل الذي ينتسبون إليه، وأحفاد إسرائيل أو يعقوب هم المعروفون باسم الأسباط، والذين يرد ذكرهم مكرراً في القرآن، وهم رؤوس قبائل بني إسرائيل، وكانوا ما يزالون يتبعون النظام القبلي، الذي تنسب فيه القبيلة إلى رأسها الكبير.

ومن ثم يقول: ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ أي العين الخاصة بهم من الأثنتي عشرة عيناً، وقيل لهم على سبيل الإباحة والإنعام والتحذير من الاعتداء والإفساد.

﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

لقد كانوا بين الصحراء بجدبها وصخورها، والسماء بشواظها ورجومها. فأمّا الحجر فقد أنبع الله لهم منه الماء، وأمّا السماء فأنزل لهم منها المن والسلوى: عسلاً وطيراً.. ولكن البُنيّة النفسية المفككة والجبلة الهابطة المتداعية أبت

على القوم أن يرتفعوا إلى مستوى الغاية التي من أجلها أخرجوا من مصر ومن أجلها ضربوا في الصحراء.. لقد أخرجهم الله على يدي نبيهم موسى (ع) من الذل والهوان ليورّثهم الأرض المقدسة وليرفعهم من المهانة والضعة.

وللحرية ثمن، وللعزة تكاليف، وللأمانة الكبرى التي ناطهم الله بها فدية، ولكنّهم لا يريدون أن يؤدوا الثمن، ولا يريدون أن ينهضوا بالتكاليف، ولا يريدون أن يدفعوا الفدية حتى بأن يتركوا مألوف حياتهم الرتيبة الهينة. أو بأن يغيروا مألوف طعامهم وشرابهم، وأن يكيفوا أنفسهم بظروف حياتهم الجديدة، في طريقهم إلى العزّة والحرية والكرامة إنهم يريدون الأطعمة المنوّعة التي ألفوها في مصر يريدون العدس والثوم والبصل والقثاء. وما إليها! وهذا ما يذكرهم القرآن به. وهم يدعون في المدينة دعاواهم العريضة:

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ البقرة٦١

ولقد تلقى موسى (ع) طلبهم بالاستنكار: ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ أتريدون الدنيا وقد أراد الله لكم العلية؟

﴿ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾

إما بمعنى أن ما يطلبونه هين زهيد، لا يستحق الدعاء، فهو موفور في أي مصر من الأمصار فاهبطوا أية مدينة فإنكم واجدوه فيها.. وإما بمعنى عودوا إذن إلى مصر التي خرجتم منها عودوا إلى حياتكم الدارجة المألوفة إلى حياتكم الخانعة الذليلة. حيث تجدون العدس والبصل والثوم والقثاء! ودعوا الأمور الكبار التي ندبتم لها.. ويكون هذا من موسى (ع) تأنيباً لهم وتوبيخاً.

السيد قطب يرجح هذا التأويل الذي استبعده بعض المفسرين، يرجحه

بسبب ما يعقبه في السياق من قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾البقرة ٦١.

فإن ضرب الذلّة والمسكنة عليهم، وعودتهم بغضب الله، لم يكن (من الناحية التاريخية) في هذه المرحلة من تاريخهم، إنما كان فيما بعد، بعد وقوع ما ذكرته الآية في ختامها:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾البقرة ٦١.

وقد وقع هذا منهم متأخراً بعد عهد موسى بأجيال! إنّما عجل السياق بذكر الذلة والمسكنة والغضب هنا لمناسبته لموقفهم من طلب العدس والبصل والثوم والقثاء! فناسب أن يكون قول موسى لهم: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾البقرة٦١ هو تذكير لهم بالذلّ في مصر، وبالنجاة منه ثم هفوة نفوسهم للمطاعم التي ألقوها في دار الذل والهوان!

ولم يشهد تاريخ أمة ما شهده تاريخ بني إسرائيل من قسوّة وجحود واعتداء وتنكر للهداة، فقد قتلوا وذبحوا ونشروا بالمناشير عدداً من أنبيائهم، وقد كفروا أشنع الكفر. واعتدوا أشنع الاعتداء وعصوا أبشع المعصية وكان لهم في كل ميدان من هذه الميادين أفاعيل ليس مثلها أفاعيل! ومع هذا كله فقد كانت لهم دعاوى عريضة عجيبة، كانوا دائماً يدّعون أنهم هم وحدهم المهتدون. وهم وحدهم شعب الله المُختار، وهم وحدهم الذين ينالهم ثواب الله وأن فضل الله لهم وحدهم دون شريك وهنا يكذّب القرآن هذه الدعوى العريضة، ويقرّر قاعدة من قواعده الكلية، التي تتخلّل القصص القرآني، أو تسبقه أو تتلوه.

كما أنه يقرّر قاعدة وحدة الإيمان.. ووحدة العقيدة، متى انتهت إلى إسلام النفس لله، والإيمان به إيماناً ينبثق منه العمل الصالح وأن فضل الله ليس حجراً محجوراً على عصبية خاصة، إنما هو للمؤمنين أجمعين في كل زمان،

وفي كل مكان، كل بحسب دينه الذي كان عليه حتى تجئ الرسالة التالية بالدين الذي يجب أن يصرّ المؤمنون إليه.

* السيد فضل الله:

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

معاني المفردات:

﴿ يَسُومُونَكُمْ ﴾: يكلفونكم، ويذيقونكم، وقيل معناه: يديمون عذابكم.

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ﴾: أي يتركونهن أحياءً للخدمة من غير أن يقيلوهن، فالاستحياء طلب الحياة.

﴿بَلَآءٌ﴾: البلاء والنعمة والإحسان نظائر في اللغة، ويستعمل في الخير والشر.

﴿فَرَقْنَا﴾: شققنا.

﴿وَٰعَدْنَا﴾: واعده مواعده: عاهده على أن يوافيه في وقت وموضع معينين.

﴿بَارِئِكُمْ﴾: البارئ: الخالق، من برأ يبرأ برءاً، وأصل الباب: انفصال الشيء من الشيء ومنه برأ الله الخلق، أي فطرهم كأنهم انفصلوا من العدم إلى الوجود.

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾

هذه إحدى النعم التي أنعمها الله على بني إسرائيل، فقد كانوا يرزحون تحت حكم الطغيان الفرعوني الذي كان يعمل على إبادة رجالهم بكل وسيلة مهما كانت وحشية وقاسية، فقد كان يُذبِّح الأولاد الذكور الذين يولدون خوفاً من أن يكونوا قوّة مضادة، ويبقى النساء لحاجته لهن في خدمته وخدمة حاشيتهم. وقد ذكر في كلمة ﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾ وجهان:

١ ـ الأول: أنها مشتقة من الحياة بمعنى أنهم يطلبون الحياة لهن.

٢ ـ الثاني: أنها مشتقة من الحياء أو الاستحياء، بمعنى أن الحياء يبعثهم على الإبقاء عليهن بعلاقة المجاز، لأن الاستحياء يمنع الإنسان عن عمل ما يستحي منه عادة.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ الذين كانوا يستعبدونكم ويضغطون على حريتكم، فلا يملك أحد منكم أمامهم أي حول أو قوة فلا يستطيع الدفاع عن نفسه أو حماية وجوده، فكانوا ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ أي يذيقونكم العمرانية والزراعية، وفي فرض الجزية عليكم في دون أساس. ويشتدّ ذلك ويتعاظم في صورة أكثر قسوة ووحشية فهم ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ ولا يبقى منكم في المستقبل شباب يملكون القوة ورجال يعملون من أجل الحرية، كوسيلة من وسائل مصادرة وجودكم القوي في المستقبل.

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ فيبقونهن للخدمة وللذة ولغير ذلك﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ لأنه يُمثل الموت الجسدي للذكور والموت المعنوي للإناث. وقد نجاكم الله من ذلك كلّه ببركة موسى (ع) الذي جاهد في رسالته جهاد الأبطال من أجل حريتكم، التي هي رمز حرية الإنسان المُستضعف وقد جاءت هذه الآية لتقول لهم في زمن النبي محمد (ص): إن الله قد رفع عنكم هذا البلاء العظيم بفضل موسى (ع) ورسالته، وأنعم عليكم بنعمة الامتداد في الحياة بعيداً عن كل طغيان مدمّر وحشي، فلماذا لا يشكرون؟!

﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾البقرة: ٥٠

وهذه تُمثّل النعمة الثابتة التي أنعمها الله عليهم، وذلك في صورة المعجزة، فقد خرج موسى ببني إسرائيل ليخلصهم من طغيان فرعون، بعد أن أعيته الوسائل الطبيعية التي حاول من خلالها، إقناع فرعون بالسماح لهم بالخروج معه حتى إذا عرف فرعون بذلك لحقهم بجنوده ليمنعهم من التقدّم... وهنا كانت المفاجأة الإلهية التي أنقذت الموقف بمعجزة حطمت كبرياء فرعون. كما استطاعت أن تُحطم زهوة في معجزة العصا فشق الله البحر لموسى وقومه وفتح لهم طريقاً يابساً وعبروا إلى الجانب الآخر، وأراد فرعون أن يلحق بهم في هذا الطريق اليابس نفسه المُمتدّ أمامه بعد عبورهم، فدخلت خيوله البحر فغمره الماء الذي غطى الطريق، وهم ينظرون إليه في حيرته الذليلة، زيادة في إذلاله وفي أعزاز المستضعفين الذين انطلقوا في طريق الرسالة والرسول.

إن الموقف قد تحرّك هنا من خلال المعجزة لأن الوسائل العادية قد استنفذت، ولم يبق هناك من سبيل لإنقاذ الموقف الرسالي إلاّ ذلك، فلو أن فرعون استطاع أن يدركهم لدمرهم ودمّر موسى معهم، ممّا يجعل القضية تمثل انتصاراً ساحقاً للكفر على الإيمان، وهذا ما لا يريده الله في تلك المرحلة التي تحوّلت إلى موقف للتحدي المباشر له.

﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

في هذا الجو استدعى الله موسى لميقاته لينزل عليه التوراة في مدى أربعين ليلة، وهنا كانت المفارقة فلم يكد موسى يغيب عنهم حتى نسوا الرسالة والرسول، ونسوا الله سبحانه وتعالى، فعبدوا العجل ولم ينفتحوا على الآفاق الواسعة التي أراد الله لهم أن ينفتحوا عليها لينطلقوا إلى العالم لحمله

للرسالة الشاملة فيكون لهم المركز الكبير في ظل هذه الرسالة.

ولكن الله لم يعاملهم بظلمهم بل عفا عنهم ليفسح لهم المجال للتراجع ولتصحيح الفكر والمسيرة ليهيئ لهم الجو الروحي والنفسي الذي يعينهم على الرجوع إليه والشكر له على نعمائه من ناحية عملية.

﴿ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ ليتلقى الوحي الإلهي الذي فيه الهدى للناس في كل قضاياهم العامة، في مسؤولياتهم اتجاه أنفسهم، واتجاه الناس من حولهم، بالإضافة إلى مسؤولياتهم في عبادة الله.

﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾البقرة ٥١ فرجعتم إلى السلوك الوثني الذي يعود إلى تاريخكم المُنحرف في حياتكم مع فرعون، ممّا يعني بأنكم لم تنفتحوا على الرسالة الإلهية التوحيدية من موقع العمق الفكري والروحي والاستقامة العملية ﴿ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾البقرة: ٥١

لأنفسكم من خلال النتائج السلبية للوثنية الجديدة في الدنيا والآخرة ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾البقرة: ٥٢

لتعودوا إلى الخط المستقيم ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ تشكروا الله على هذه النعمة التي فتحت لكم الفرصة الجديدة للعودة إلى التوازن في طاعة الله ومرضاته.

وإذا كان ا لخطاب موجهاً لليهود المعاصرين للنبي محمد (ص) الذين لم يعبدوا العجل، فذلك لاعتبارهم امتداداً لأولئك كفريق واحد يمتدّ في الحاضر من خلال امتدادات التاريخ، ممّا يجعل الخصائص التاريخية لأسلافهم بمثابة الحضارة الذاتية لهم.

﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

يثير الله في هذه الآية، أمام بني إسرائيل مسألة إنزال الكتاب والفرقان كنعمة عظيمة من النعم الكبيرة التي يمنّ الله بها عليهم، باعتبار أنه سبيل الهداية إلى الحق، الأمر الذي يُوحي بأنّ الاهتداء إلى الطريق القويم نعمة

عظيمة كبيرة.

والظاهر أن كلمة الفرقان التي تعبّر عن الفارق بين الحق والباطل، تُعتبر تفسيراً لكلمة الكتاب، على سبيل العطف التفسيري الذي يُراد به توضيح الصفة العلمية للكتاب.

﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ وَأَنتُمْ ﴾ الذي يفصل بين الحق والباطل في مفاهيمه وشرائعه ومناهجه، بحيث يحقق لكم الثقافة الواعية التي تعرف حدود الأشياء في سلبياتها وإيجابياتها.

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ بآياته في إيحاءاتها وأفكارها وخطوطها الواضحة للمسيرة الإنسانية في الحياة.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

لم يترك موسى القصة من دون عقاب، لأن القضية ليست قضية طارئة بسيطة، بل هي من القضايا التي تهدّد المسيرة في مجتمعها الذي يُمكن أن يتلاعب به أي إنسان مُنحرف بفعل بعض الأساليب الشيطانية الخادعة، ممّا يجعل الجبهة مفتوحة أمام كل القوى بتعميق الإحساس بالذنب في نفوسهم.

وتوحي الآية بأنّ يدعوهم إلى التوبة ولكن بطريقة جديدة مرعبة، وهي أن يقتلوا أنفسهم، إما بأن يقتل كل واحد نفسه، وإمّا بأن يستسلم بعضهم لبعض حسب اختلاف فهم المفسرين.

وإذا أردنا أن نأخذ بظاهر الآية، ونحمل القتل على معناه اللغوي، فقد يكون السبب في هذه العقوبة الصعبة أن الموقف يُمثّل أول تمرّد للقوم على النبوّة في بداية تحركها العملي، من أجل الانتقال من دور الدعوة والتبليغ إلى دور التنظيم والتشريع، والاتجاه إلى بناء الفرد والمجتمع على أساس المفاهيم

الدينية الجديدة التي أوحى بها الله إلى موسى في صيغة تشريعية متصلة لا تترك أي مجال للفراغ الفكري والعملي، فكان لا بد من موقف يساوي حجم التمرد، ليكون ضربة قوية للطبيعة المتمردة التي بدأت تحكم مسيرة الذين الجديد في مجتمعه.

ويؤكد السيد فضل الله أنّ الخط التفسيري الذي يسير عليه، هو العمل بظاهر القرآن في ما توحيه طبيعة الكلمة في معناها الموضوع لها أو في القرائن المحيطة بالكلمة، إلى أن يثبت العكس، لأنّ من الممكن أن تكون التوبة بالإستسلام للقتل نظير القصاص ولا ضرورة لوجود مجال للحياة في المستقبل، لأنّ الحدود الشرعية في حالة القتل أو الزنى للمحض أو غير ذلك تعتبر وسيلة للتوبة وللتطهير.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ﴾ وهو يحاورهم حول السلبيات السلوكية الصادرة منهم في انحرافهم العملي ليثير فيهم الشعور بعقدة الذنب الذي قد يؤدي بهم إلى القيام بعملية التصحيح والعودة إلى خط الاستقامة في خط الرسالة في الفكر والعمل.

﴿يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُم﴾ ورطتموها في السير بها إلى مواقع الهلاك الأخروي وذلك بحركة التمرّد على الخط التوحيدي في العبادة لله.

﴿بِاتِّخَاذِكُمُ العِجْلَ﴾ معبوداً بعد أن بيّنت لكم الأسس العقيدية التي يرتكز عليها التوحيد في الالتزامات العملية المتحركة في دائرة الالتزام الفكري في توحيد الله.

﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ أي خالقكم الذي يملك كل وجودكم، الذي هو سرّ النعمة الكبرى في إنسانيتكم، ممّا يفرض عليكم العودة إليه بعد الرحلة الضالة في عودة الإنسان إلى مبدع وجوده، ليحصل على رحمته ويمتدّ معه في نعمته، وليعبر بذلك عن شكره وانقياده له، ولا سيما أن الأمر بالتوبة ليس أمراً من الله ﴿بَارِئِكُمْ﴾ إشارة إلى عمق الموضوع للإيحاء بالمعنى الذي يوحي

للإنسان بضرورة الانضباط في خط التوبة.

﴿فَاقْتُلُواْ أَنْفُسَكُمْ﴾ كعقوبة حاسمة للواقع الشركي الذي ابتعدتم فيه كثيراً عن الخط التوحيدي المستقيم فتمردتم على الله ونسيتم نعمه، ورجعتم إلى الوثنية المتخلفة التي انطلق كل الجهاد ضد فرعون من أجل تحريركم منها، لأنّ القضية في حركة الرسالات التوحيدية، ليست هي تحرير الإنسان من الوثنية الخارجية المتمثّلة في الحجر أو البشر الذي يعبدُه الناس من دون الله، بل هي في تحريره من ذهنية الصنمية، بحيث لا يبقى فيها جذور في الوعي الفكري للإنسان، فلا يعود إليها عند توفر الظروف الملائمة لها في الواقع الخارجي.

﴿ذَلِكُمْ﴾ أي القتل الذي هو وسيلة التوبة ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ لأنه يحقق لكم الحصول على رضاه من خلال دلالته على صدق التوبة في عمق الإحساس بالندم، ويؤدي بالتالي إلى السعادة الكبرى من النجاة من النار ودخول الجنة ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ بذلك ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ﴾ على المذنبين التائبين ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالخاطئين المنيبين.

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾البقرة: ٥٥

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾البقرة: ٥٦

معاني المفردات:

﴿جَهْرَةً﴾: علانية.

﴿بَعَثْنَاكُم﴾: نشرناكم بعد موتكم.

﴿﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ أي عياناً، تماماً كما يشاهد أحدنا الآخر، وهو ما يدلّ على أنكم لم تنطلقوا من وعي المسألة الإلهية في أبعادها الحقيقية التي لا تلتقي بالتجسيد المادي الذي يجعل

الإله خاضعاً للحاجات الجسدية مفتقراً إلى عناصرها المادية فهو الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾الشورى: ١١.

﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾

التي أرسلها الله عليكم في برقها ورعدها وزلزالها، للإيحاء لكم بأنكم إذا لم تملكوا أحيائكم في مواجهة هذه الظاهرة التي هي خلق من قدرة الله فكيف تملكون النظر إليه سبحانه لو كان ذلك مُمكناً.

﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ مدهوشين مذهولين بالمستوى الذي سقطتم فيه صرعى من دون حياة ولا حراك.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾البقرة: ٥٦

لتعرفوا مدى قدرة الله على تحريك الحياة بإرادته، وإنزال الموت بقوته، وإعادة الحياة بقدرته في الدنيا والآخرة.

وقد حاول البعض تفسير الموت بالغيبوبة، ليكون عبارة عن اليقظة، أو تفسير الموت بانقطاع النسل، والبعث كثرته، ونحو ذلك ممّا لا دليل عليه، مع مخالفته للظاهر القرآني.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ النعمة الجديدة في البعث بعد الموت، مما لم يحدث لغيركم من الناس في التاريخ وتلك هي النعمة والتي لا تدانيها أيّة نعمة مادية في الدنيا، بحيث تفرض الشكر الذي لا يدانيه شكر.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ

مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴾البقرة ٧٥-٦١

معاني المفردات:

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ ﴾: سخرناه ليظلّلكم.

﴿ ٱلْمَنَّ ﴾: أصل المّن: «الإحسان إلى من لا يستثيبه.... فالمّن الذي كان يسقط على بني إسرائيل هو مما منّ الله به عليهم، أي أحسن به إليهم».

﴿ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴾: طائر كالسماني، طائر معروف.

﴿رَغَدًا﴾: رغد عيشه: طاب واتسع، فهو رغدٌ ورغد ورغيد.

﴿حِطَّةٌ﴾: الحط: النزول والهبوط.

﴿رِجْزًا﴾: الرجز هنا العذاب وأصله الاضطراب.

﴿ٱسْتَسْقَىٰ﴾: الاستسقاء: طلب الماء.

﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾: مكان شربهم.

﴿تَعْثَوْا﴾: العيث والعبث: أشد الفساد.

﴿وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا﴾: القِثاء: الخيار، الفوم: الثوم أو الحنطة، وهو البرّ الذي يعمل منه الخبز.

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ﴾: انصرفوا ورجعوا، ولا يقال «باء» إلاّ موصولاً إمّا بخير أو بشر.

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ ﴾: في رحلتكم الطويلة في الصحراء اللاهبة التي تشتدّ فيها حرارة الشمس فتشمل مسيرة السائرين وتكلفهم جهداً كبيراً

وعناء عظيماً وآلاماً شديدة، فكان الغمام الذي يحجب حرارة الشمس ويُخفّف من تأثيرها، ويستبدل الجو الحار المُحرق بجو ظليل مُنعش يمنح السائرين الإحساس بالاسترخاء الجسدي من خلال برودة الهواء ووداعة الظلال.

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ ممّا تتغذون به في هذه المسيرة الطويلة لئلا تواجهوا الجوع القاتل والتعبير بالإنزال، هنا، يتضمّن الإيحاء بالموقع الأعلى الذي يتمثّل في الله على عبادة الذين هم في المنزلة الدنيا، وليس بالتالي من الضروري أن يكون تعبيراً عن الإنزال المادي وإن كان مُحتملاً.

﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ فقد هيأ الله لكم طيبات الطعام من كل الأصناف الشهية ممّا أحله لكم، ودعاكم إلى التمتّع بها، لأن الله لا يريد لكم حرمان أنفسكم منها، فليست القيمة في الحياة أن تجوعوا أو تظمأوا أو تلبسوا اللباس الخشن... في ذاتية الجوع والظمأ والخشونة، بل القيمة هي الإرادة الإنسانية في التوبة الواعية التي يملك الإنسان فيها نفسه في مواقع السلب أو الإيجاب، بحيث لا يكون عبد الطيبات والملذات، بل يكون سيّدها من حيث هو سيد نفسه في قوة إرادته.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾في انحرافهم عن خط الإيمان والعمل الصالح، بالمعنى الذي توحي به كلمة الظلم من النتائج السيئة التي تصيب المظلوم من تصرفات الظالم، لأن الله هو الغني بذاته الذي لا تنفعه طاعة من أطاعه أو إيمان من آمن به، ولا تضرّه معصية من عصاه أو كُفر من كفر به.

﴿وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ لأن الكُفر والانحراف يُمثّلان خطين من الخطوط المنحرفة عن القيمة الكبرى التي ترتفع بالإنسان إلى الدرجات العُليا في الحياة الدنيا وفي الدار الآخرة، ممّا يؤدي إلى الهلاك العاجل والآجل معاً.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ والظاهر أن المُراد بها بيت المقدس الذي أُريد له أن يكون المستقر الذي تتحرّك فيه الرسالة من موقع القوة بعد خروج موسى من مصر، باعتبار أن وجود قاعدة الانطلاق في أي مشروع رسالي عام،

أمر ضروري في موازين القوى في ساحة الصراع بين الحق والباطل في واقع الحياة العامة.

﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً﴾ من خلال القوة القاهرة التي تملكونها في سيطرتكم على مواقع الجبارين الذين يستضعفون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق، لتكون لكم الحرية في الأخذ بما تشاؤون من النِعم الموجودة فيها والأكل ممّا تشتهونه من ثمارها وطيباتها من سعة من العيش الهني.

﴿ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا ﴾ باب البلد سجّداً شكراً لله على نعمته في انتصاركم على الجبارين الظالمين الذين يكفرون به ويصدّون عن سبيله كل المؤمنين الصالحين.

﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٞ ﴾ الأعراف: ١٦١ وابتهلوا إلى الله في اعتراف صادق بالتوبة والندم على كل التاريخ الخاطئ الذي عشتموه في خطاياكم وقولوا في ابتهالاتكم اللهمّ حطِ عنّا خطايانا، فإنّ الله سوف يستجيب لكم ذلك ويغفر لكم خطيئاتكم.

﴿ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ ﴾ لتتحرّروا من ثقل الخطيئة وعقدة الإحساس بالذنب، ولن يقتصر اللطف الإلهي على غفران الخطايا، بل يمتدّ إلى الزيادة لكم في أعمالكم وأموالكم جزاءً لإحسانكم.

﴿ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ الذين أحسنوا القول والعمل، بالإضافة إلى الإحسان في خط العقيدة والإيمان.

﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ أنفسهم بالانحراف عن الخط المستقيم.

﴿ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ ﴾ فاستبدلوا الدعاء بالحط عن الخطايا، بإعلان الإصرار على التمرّد على الله والتواضع للحق بالاستكبار عليه، والاحترام للرسول والرسالة وللرساليين بالسخرية والاستهزاء.

﴿ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ والظاهر أن المقصود به العذاب، وقيل إنه الطاعون.

﴿ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴾ لأن العذاب دنيوياً كان أو أخروياً لا ينطلق من فراغ، بل ينطلق من السبب الواقعي الذي يتمثّل في الفسق العملي في حركة الإنسان على صعيد الانحراف.

وفي هذا إشارة إلى العلاقة الوثيقة بين العمل الشرير المُنحرف عن الحق، وبين النتائج السيئة التي تطال المنحرفين الأشرار من خلال الرابطة العضوية بين السبب والمسبب، أو المقدمة والنتيجة في نطاق السنن الإلهية التي أودعها الله في حركة الواقع الطبيعي في نظام الكون.

﴿ وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ ﴾ في مسيرة التّيه، وأرادوا منه أن يسقيهم الماء في الوقت الذي لم تكن هناك أية بوادر توحي بوجود الماء في المناطق المحيطة بهم، لأنهم شاهدوا في تجربتهم معه أنه يملك الموقع المميز عند الله بالدرجة التي يستطيع أن يطلب فيها منه ربه الحصول على ما يريده في مهمته الرسالية العامة بطريقة غيبية على أساس المعجزة، كما حدث في عبورهم البحر ونحوه، وهكذا أرادوا له أن يُحقّق لهم ما يريدونه بمعجزة، واستجاب الله نداءه ودعاءه.

﴿ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ ﴾ أي حجر كان، فليس المراد به حجراً معيناً، وهذا ما يؤكد المعجزة، باعتبار أن القضية ليست تحديد مكان معين يوجد فيه الماء دون مكان آخر، بل هي خلق الماء من العدم.

﴿ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ ﴾

لكل جماعة منهم عين معينة في عملية توزيع عادلة تمنع النزاع والاختلاف، وكانوا اثني عشر سبطاً؛ وهم ذرية أبناء يعقوب الإثني عشر.

﴿ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ ﴾من خلال التحديد الذي حدّده لهم موسى في قضية توزيع الحصص فيما بينهم.

﴿ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ ﴾ ممّا رزقكم الله من غير جهد وعناء واشكروا الله على ذلك في إصلاح أمركم في الإيمان والقول والفعل، لتوظفوا نعم الله

الكثيرة في هذا وفي غيره في ما يرضاه الله من إصلاح البلاد والعباد.

﴿ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ لأن الله لا يريد للإنسان أن يحرّك طاقاته في الفساد والإفساد في مجالات الحياة.

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ ﴾ ويقال إنه المنّ والسلوى باعتبار أنه الطعام الذي لا يتغير ولا يتبدّل، ممّا يُعطيه معنى الوحدة حتى مع تعدّده، فنحن نريد التنوّع أو العودة إلى طعامنا الذي اعتدنا عليه بالإضافة إلى ما رزقنا الله من الطعام.

﴿ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا ﴾ وهو كل ما اخضرّت به الأرض من البقول والخضروات ﴿ وَقِثَّآئِهَا﴾ وهو الخيار ﴿ وَفُومِهَا﴾ وهو الثوم، و﴿ وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ وهما معروفان.

﴿ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ أقل مرتبة في الخصائص والعناصر الشهية ممّا تطلبونه، وهو المن والسلوى، فلا ترتفعون في مزاجكم الغذائي إلى المستوى الأفضل؟ الأمر الذي قد يوحي بالجمود الذاتي في عاداتكم وتقاليدكم الذي يمتدّ إلى أفكاركم فلا تتحرّك نحو التطوّر في اكتشاف الجديد من خصائصه، أو الجديد لدى الشعوب الأخرى، الذي قد يتميّز عن القديم المألوف للناس، حتى لو كان الجديد طيباً والقديم خبيثاً.

﴿ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ من مشتهياتكم ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ ﴾ من خلال خضوعهم للأطماع الذاتية، التي تبتعد بهم عن القضايا الكبيرة في مواقع التحدّي والتمرّد على الذات، الأمر الذي يجعلهم مشدودين إلى الضعف النفسي والسقوط الروحي أمام الآخرين الذين يملكون حاجاتهم ويفرضون عليهم سيطرتهم، من خلال نقاط الضعف المُتحكمة فيهم الكامنة في داخل شخصياتهم.

﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي عادوا بحصيلتهم العملية بغضب الله عليهم لعصيانهم له وتمردهم على رسوله ورسالاته.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾البقرة ٦١

بعد قيام الحجة عليهم وإدراكهم للحق الصادر من الله.

﴿ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾البقرة ٦١ من خلال العقدة المتأصلة في نفوسهم ضد الحق وأهله، من الرسل الذين جاؤوا ليحرّروا الإنسان المستعبد من عبوديته والشخص المستضعف من استضعافه وليربطوه بالله الذي خلقه وأراد له أن يكون عزيزاً حراً، وبالقيم الروحية التي أراد الله للإنسان أن ينطلق بها في كل خطواته في الحياة ليرتفع إلى الدرجات العليا في الروح والفكر والحركة والحياة، ولكن هؤلاء الناس الذين تعودوا على الخضوع للاستعباد وأهله، لا يريدون الانفتاح على الرسالة الجديدة الحرّة ولا يحترمون الرُسل الذين يحملونها، ولا يملكون في الوقت نفسه مواجهتهم بالحجة فيعمدون إلى اضطهادهم وقتلهم لئلا يكونوا شهوداً على الواقع الشرير الذي يتقلبون فيه ويتحركون من خلاله.

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ ﴾البقرة ٦١ ربهم وخالفوا أوامره ونواهيه في اتباع الصراط المستقيم.

﴿ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾البقرة ٦١أي يتجاوزون الحدّ في الظلم والبغي والفساد.

ففي هذا الجو كان النبي موسى (ع) يحمل قضية العقيدة في صراع الإيمان والكفر، ويحمل قضية الاضطهاد الذي يعانيه هذا الشعب في حكم فرعون، وبهذا كانت الرسالة تتحرّك في اتجاهين: أ ـ في صراع الإيمان ضد الكفر، ب ـ وفي صراع العدل ضد الظلم. وبهذا كان للرسالة جمهورها المتحرّك، ولكن هذا الجمهور الذي خرج من جوّ الاضطهاد إلى جو الحرية بفضل الرسالة والرسول، لم يكن في مستوى الرسالة، فقد كان يناصر الرسول على أساس قضيته الحياتية المباشرة، لا على أساس قضية الرسالة، ولهذا كان لا بد للرسالة من الاحتفاظ بجمهورها أو بمقدار منه، فتمنحه مقداراً كبيراً من الأجواء الهادئة الواسعة التي يتنفس فيها روح الرسالة، ويشعر بأن الأجواء الجديدة هي أجواء الرحمة

والرعاية حتى مع أشدّ التحديات قساوة وضراوة، ولعل التجربة كانت ناجحة، لأننا رأينا انفصال مقدار كبير من الجمهور عن الخط المُنحرف إلى الخط المستقيم.

وهنا يبرز السؤال: لماذا ركّز القرآن كثيراً مقدار كبير على بني إسرائيل، بحيث شغل جو القرآن لله بهم حتى أصبحنا نشعر بأننا نلتقي بهم في كل سورة؟

من الواضح أن صراع الإسلام مع التحريف في الرسالات السماوية المتقدّمة ومع جمهورها المنحرف، ليس صراعاً بسيطاً، بل كان يُمثّل الصراع حول المفاهيم الأساسية لخط الإيمان العريض.. وعليه كان لا بد من أن يُعطي كل الفكرة عن هذا الجمهور الضال، باعتباره القوة الأولى التي تهدّد حركته، ويعطي الفكرة من خلال ذلك للأفكار الصحيحة السليمة التي طرأ عليها الانحراف، لذلك كانت القضية هي الاهتمام بتاريخ الرسالات السماوية في جمهورها المنحرف والمستقيم، وفي أفكارها المحرّفة والخاطئة، باعتبار أن الإسلام يُمثّل الامتداد الحي لهذه الرسالات، ممّا يجعل لحركتها وتاريخها ومفاهيمها تأثير كبير على حركة الإسلام في حاضره ومستقبله، ولهذا نرى أن الإسلام يرفض هذ التاريخ ويحاكمه وينقضه، فكيف يجتمع هذا مع نظرة القداسة والتكريم التي يطرحها السؤال أو يوحي بها البعض في المفهوم الخطأ؟!

*** الطبري:**

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ البقرة ٤٩

أما تأويل قوله: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم﴾ فإنه عطف على قوله: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ﴾ البقرة: ٤٧ . فكأنه قال: اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم، واذكروا إنعامنا عليكم إذ نجيناكم من آل فرعون بإنجائناكم منهم. وأما آل فرعون فإنهم أهل

دينه وقومه وأشياعه. وأصل»آل» أهل.

وإنما جاز أن يقال: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾، والخطاب به لمن لم يدرك فرعون ولا المنجين منه، لأن المخاطبين بذلك كانوا أبناء من نجاهم من فرعون وقومه، فأضاف ما كان من نعمه على آبائهم إليهم، وكذلك ما كان من كفران آبائهم على وجه الإضافة، كما يقول القائل لآخر: «فعلنا بكم كذا، وفعلنا بكم كذا، وقتلناكم وسبيناكم»، والمخبر إما أن يكون يعني قومه وعشيرته بذلك، أوأهل بلده ووطنه كان المقول له ذلك أدرك ما فعل بهم من ذلك أولم يدركه.

وأما تأويل قوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ فإنه: يوردونكم، ويذيقونكم، ويولونكم، يقال منه: «سامه خطة ضيم»، إذا أولاه ذلك وأذاقه، كما قال الشاعر:

إن سيم خسفا، وجهه تربدا

فأما تأويل قوله: ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ فإنه يعني: ما ساءهم من العذاب. وقد قال بعضهم: أشد العذاب، ولوكان ذلك معناه لقيل: أسوأ العذاب.

﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾

وأضاف الله جل ثناؤه ما كان من فعل آل فرعون ببني إسرائيل من سومهم إياهم سوء العذاب، وذبحهم أبناءهم، واستحيائهم نساءهم إليهم، دون فرعون وإن كان فعلهم ما فعلوا من ذلك كان بقوة فرعون، وعن أمره لمباشرتهم ذلك بأنفسهم. فبين بذلك أن كل مباشر قتل نفس أوتعذيب حي بنفسه، وإن كان عن أمر غيره، ففاعله المتولي ذلك هو المستحق إضافة ذلك إليه، وإن كان الآمر قاهرا الفاعل المأمور بذلك سلطاناً كان الآمر، أولصاً خارباً، أومتغلباً فاجراً. كما أضاف جل ثناؤه ذبح أبناء بني إسرائيل واستحياء نسائهم إلى آل فرعون دون فرعون، وإن كانوا بقوة فرعون وأمره إياهم بذلك، فعلوا ما فعلوا، مع غلبته إياهم وقهره لهم. فكذلك كل قاتل نفساً بأمر غيره ظلماً، فهو المقتول عندنا

به قصاصاً، وإن كان قتله إياها بإكراه غيره له على قتله.

وأما تأويل ذبحهم أبناء بني إسرائيل، واستحيائهم نساءهم، فإنه كان فيما ذكر لنا عن ابن عباس وغيره. وعن ابن عباس، قال: تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم خليله أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكاً وائتمروا، وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالاً معهم الشفار يطوفون في بني إسرائيل، فلا يجدون مولوداً ذكراً إلا ذبحوه، ففعلوا. فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بآجالهم، وأن الصغار يذبحون، قال: توشكون أن تفنوا بني إسرائيل فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة ما كانوا يكفونكم، فاقتلوا عاماً كل مولود ذكر فتقل أبناؤهم؛ ودعوا عاماً. فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لا يذبح فيه الغلمان، فولدته علانية آمنة، حتى إذا كان القابل حملت بموسى.

وحدثني موسى بن هارون، قال: حدّثنا عمرو بن حماد، قال: حدثنا أسباط بن نصر عن السدي، قال: كان من شأن فرعون أنه رأى في منامه أن ناراً أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر، فأحرقت القبط وتركت بني إسرائيل، وأخربت بيوت مصر. فدعا السحرة والكهنة والعافة والقافة والحازة، فسألهم عن رؤياه فقالوا له: يخرج من هذا البلد الذي جاء بنو إسرائيل منه يعنون بيت المقدس رجل يكون على وجهه هلاك مصر. فأمر ببني إسرائيل أن لا يولد لهم غلام إلا ذبحوه، ولا تولد لهم جارية إلاّ تركت. وقال للقبط: انظروا مملوكيكم الذين يعملون خارجاً فأدخلوهم، واجعلوا بني إسرائيل يلون تلك الأعمال القذرة. فجعل بني إسرائيل في أعمال غلمانهم، وأدخلوا غلمانهم; فذلك حين يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾يقول: تجبر في الأرض ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾، يعني بني إسرائيل، حين جعلهم في الأعمال القذرة، ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ ﴾القصص: ٤. فجعل لا يولد لبني إسرائيل مولود إلا ذبح، فلا يكبر الصغير. وقذف الله في مشيخة بني إسرائيل الموت، فأسرع فيهم. فدخل رؤوس القبط على فرعون، فكلموه، فقالوا: إن

هؤلاء قد وقع فيهم الموت، فيوشك أن يقع العمل على غلماننا! بذبح أبنائهم، فلا تبلغ الصغار وتفنى الكبار! فلوأنك كنت تبقي من أولادهم! فأمر أن يذبحوا سنة ويتركوا سنة. فلما كان في السنة التي لا يذبحون فيها ولد هارون، فترك، فلما كان في السنة التي يذبحون فيها حملت بموسى.

والذي قاله من ذكرنا قوله من أهل العلم: كان ذبح آل فرعون أبناء بني إسرائيل واستحياؤهم نساءهم فتأويل قوله إذاً على ما تأوله الذين ذكرنا قولهم: ﴿ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾، يستبقونهن فلا يقتلونهن.

وقد يجب على تأويل من قال بالقول الذي ذكرنا عن ابن عباس وأبي العالية والربيع بن أنس والسدي في تأويل قوله: ﴿ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾، أنه تركهم الإناث من القتل عند ولادتهن إياهن أن يكون جائزاً أن يسمى الطفل من الإناث في حال صباها وبعد ولادها:»امرأة» والصبايا الصغار وهن أطفال: «نساء». لأنهم تأولوا قول الله عز وجل:﴿ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾، يستبقون الإناث من الولدان عند الولادة فلا يقتلونهن.

﴿ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾

أما قوله: ﴿ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾، فإنه يعني: وفي الذي فعلنا بكم من إنجائنا لكم ممّا كنتم فيه من عذاب آل فرعون إياكم، على ما وصفت بلاء لكم من ربكم عظيم. ويعني بقوله بلاء: نعمة.

وأصل البلاء في كلام العرب الاختبار والامتحان، ثم يستعمل في الخير والشر. لأن الامتحان والاختبار قد يكون بالخير كما يكون بالشر، كما قال ربنا جل ثناؤه: ﴿ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾الأعراف: ١٦٨ ، يقول: اختبرناهم، وكما قال جل ذكره: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾الأنبياء: ٣٥. ثم تسمي العرب الخير بلاء والشر بلاء. غير أن الأكثر في الشر أن يقال: بلوته أبلوه بلاء، وفي الخير: أبليته أبليه إبلاء وبلاء.

﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾البقرة: ٥٠

أما تأويل قوله: ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ﴾، فإنه عطف على: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم﴾، بمعنى: واذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم، واذكروا إذ نجيناكم من آل فرعون، وإذ فرقنا بكم البحر. ومعنى قوله: ﴿فَرَقْنَا بِكُمُ ﴾: فصلنا بكم البحر. لأنهم كانوا اثني عشر سبطاً؛ ففرق البحر اثني عشر طريقاً، فسلك كل سبط منهم طريقاً منها، فذلك فرق الله بهم عز وجل البحر، وفصله بهم، بتفريقهم في طرقه الاثني عشر، كما: حدثني موسى بن هارون قال، حدّثنا عمروبن حماد قال، حدّثنا أسباط بن نصر، عن السدي: لما أتى موسى البحر كناه «أبا خالد»، وضربه فانفلق، فكان كل فرق كالطود العظيم، فدخلت بنوإسرائيل. وكان في البحر اثنا عشر طريقاً في كل طريق سبط.

حدثنا الحسن بن يحيى قال، أخبرنا عبد الرزاق قال، أخبرنا معمر، عن أبي إسحاق الهمداني، عن عمروبن ميمون الأودي في قوله: ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾البقرة: ٥٠، قال: لما خرج موسى ببني إسرائيل، بلغ ذلك فرعون فقال: لا تتبعوهم حتى يصيح الديك. قال: فوالله ما صاح ليلتئذ ديك حتى أصبحوا: فدعا بشاة فذبحت، ثم قال: لا أفرغ من كبدها حتى يجتمع إلي ستمائة ألف من القبط. فلم يفرغ من كبدها حتى اجتمع إليه ستمائة ألف من القبط. ثم سار، فلما أتى موسى البحر، قال له رجل من أصحابه يقال له يوشع بن نون: أين أمرك ربك يا موسى؟ قال: أمامك. يشير إلى البحر. فأقحم يوشع فرسه في البحر حتى بلغ الغمر، فذهب به، ثم رجع. فقال: أين أمرك ربك يا موسى؟ فوالله ما كذبت ولا كذبت: ففعل ذلك ثلاث مرات. ثم أوحى الله جل ثناؤه إلى موسى: ﴿ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ الشعراء: ٦٣ يقول: مثل جبل قال: ثم سار موسى ومن معه وأتبعهم فرعون في طريقهم، حتى إذا تتاموا فيه أطبقه الله عليهم. فلذلك قال: ﴿ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾. قال معمّر، قال قتادة: كان مع موسى

ستمائة ألف، وأتبعه فرعون على ألف ألف ومائة ألف حصان.

ويعني بقوله: ﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ أي تنظرون إلى فرق الله لكم البحر، وإهلاكه آل فرعون في الموضع الذي نجاكم فيه، وإلى عظيم سلطانه في الذي أراكم من طاعة البحر إياه، من مصيره ركاماً فلقاً كهيئة الأطواد الشامخة، غير زائل عن حدّه، انقياداً لأمر الله وإذعاناً لطاعته، وهو سائل ذائب قبل ذلك. يوقفهم بذلك جل ذكره على موضع حججه عليهم، ويذكرهم آلاءه عند أوائلهم، ويحذرهم في تكذيبهم نبينا محمداً (ص) أن يحل بهم ما حلّ بفرعون وآله في تكذيبهم موسى (ص).

﴿ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ البقرة: ٥١

اختلفت القرأة في قراءة ذلك، فقرأ بعضهم: ﴿ وَعَدْنَا ﴾ بمعنى أن الله تعالى واعد موسى موافاة الطور لمناجاته، فكانت المواعدة من الله لموسى، ومن موسى لربه.

وقرأ بعضهم: «وَعَدْنا» بمعنى أن الله الواعد موسى، والمنفرد بالوعد دونه.

والصواب عندنا في ذلك من القول، أنهما قراءتان قد جاءت بهما الأمة وقرأت بهما القراء، وليس في القراءة بإحداهما إبطال معنى الأخرى، وإن كان في إحداهما زيادة معنى على الأخرى من جهة الظاهر والتلاوة.

وإذ كان ذلك كذلك، فمعلوم أن الله عز ذكره قد كان وعد موسى الطور، ووعده موسى اللقاء، وكان الله عزّ ذكره لموسى واعداً ومواعداً له المناجاة على الطور، وكان موسى واعداً لربه مواعداً له اللقاء.

القول في تأويل قوله تعالى ﴿ مُوسَىٰ ﴾

وموسى فيما بلغنا بالقبطية كلمتان، يعني بهما: ماء وشجر.»فمو»: هو الماء، و»شا» هو الشجر. وإنّما سمي بذلك فيما بلّغنا لأن أمه لما جعلته في

التأبو ت حين خافت عليه من فرعون وألقته في اليم، كما أوحى الله إليها، وقيل: إن اليم الذي ألقته فيه هو النيل دفعته أمواج اليم حتى أدخلته بين أشجار عند بيت فرعون، فخرج جواري آسية امرأة فرعون يغتسلن، فوجدن التأبو ت فأخذنه، فسمي باسم المكان الذي أصيب فيه، كان ذلك بمكان فيه ماء وشجر، فقيل: موسى، ماء وشجر.

﴿ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةً ﴾

ومعنى ذلك: ﴿ وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةً ﴾ بتمامها. فالأربعون ليلة كلّها داخلة في الميعاد.

قال، حدثنا أبو جعفر، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية قوله: ﴿﴿ وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةً ﴾، قال: يعني ذو القعدة وعشرا من ذي الحجة. وذلك حين خلف موسى أصحابه واستخلف عليهم هارون، فمكث على الطور أربعين ليلة، وأنزل عليه التوراة في الألواح وكانت الألواح من برد فقربه الرب إليه نجيا، وكلمه، وسمع صريف القلم. وبلغنا أنه لم يحدث حدثا في الأربعين ليلة حتى هبط من الطور.

﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴾

وتأويل قوله: ﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ ﴾، ثم اتخذتم في أيام مواعدة موسى العجل إلهاً، من بعد أن فارقكم موسى متوجها إلى الموعد. و«الهاء» في قوله»من بعده» عائدة على ذكر موسى.

فأخبر جل ثناؤه المخالفين نبينا (ص) من يهو د بني إسرائيل، المكذبين به المخاطبين بهذه الآية عن فعل آبائهم وأسلافهم، وتكذيبهم رسلهم، وخلافهم أنبياءهم، مع تتابع نعمه عليهم، وشيوع آلائه لديهم، معرفهم بذلك أنهم من خلاف محمد (ص) وتكذيبهم به، وجحودهم لرسالته، مع علمهم بصدقه

على مثل منهاج آبائهم وأسلافهم، ومحذرهم من نزول سطوته بهم بمقامهم على ذلك من تكذيبهم ما نزل بأوائلهم المكذبين بالرسل: من المسخ واللعن وأنواع النقمات.

وكان سبب اتخاذهم العجل، ما: حدثني به عبد الكريم بن الهيثم قال، حدثنا إبراهيم بن بشار الرمادي قال، حدثنا سفيان بن عيينة قال، حدثنا أبو سعيد، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما هجم فرعون على البحر هو وأصحابه، وكان فرعون على فرس أدهم ذنوب حصان، فلما هجم على البحر، هاب الحصان أن يقتحم في البحر، فتمثل له جبريل على فرس أنثى وديق، فلما رآها الحصان تقحم خلفها. قال: وعرف السامري جبريل، لأن أمه حين خافت أن يذبح خلفته في غار وأطبقت عليه، فكان جبريل يأتيه فيغذوه بأصابعه، فيجد في بعض أصابعه لبنا، وفي الأخرى عسلاً وفي الأخرى سمناً، فلم يزل يغذوه حتى نشأ. فلما عاينه في البحر عرفه، فقبض قبضة من أثر فرسه. قال: أخذ من تحت الحافر قبضة. قال سفيان: فكان ابن مسعود يقرأُها: «فقبضت قبضة من أثر فرس الرسول». قال أبو سعيد قال عكرمة، عن ابن عباس: وألقي في روع السامري إنك لا تلقيها على شيء فتقول: «كن كذا وكذا» إلا كان. فلم تزل القبضة معه في يده حتى جاوز البحر. فلما جاوز موسى وبنو إسرائيل البحر، وأغرق الله آل فرعون، قال موسى لأخيه هارون: اخلفني في قومي وأصلح. ومضى موسى لموعد ربه. قال: وكان مع بني إسرائيل حليّ من حلي آل فرعون قد تعوروه، فكأنهم تأثموا منه، فأخرجوه لتنزل النار فتأكله. فلما جمعوه، قال السامري بالقبضة التي كانت في يده هكذا، فقذفها فيه وأومأ ابن إسحاق بيده هكذا وقال: كن عجلا جسداً له خوار. فصار عجلاً جسدا له خوار، وكان تدخل الريح في دبره وتخرج من فيه، يسمع له صوت، فقال: هذا إلهكم وإله موسى. فعكفوا على العجل يعبدونه، فقال هارون: ﴿ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ٩٠ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ

إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾طه: ٩٠ - ٩١ .

عن حكيم بن جبير، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كان السامري رجلاً من أهل باجرما، وكان من قوم يعبدون البقر، وكان حب عبادة البقر في نفسه، وكان قد أظهر الإسلام في بني إسرائيل. فلما فصل هارون في بني إسرائيل، وفصل موسى إلى ربه، قال لهم هارون: أنتم قد حملتم أوزارا من زينة القوم آل فرعون وأمتعة وحلياً، فتطهروا منها، فإنها نجس. وأوقد لهم ناراً فقال: اقذفوا ما كان معكم من ذلك فيها. قالوا: نعم. فجعلوا يأتون بما كان فيهم من تلك الأمتعة وذلك الحلي، فيقذفون به فيها. حتى إذا تكسر الحلي فيها، ورأى السامري، أثر فرس جبريل، فأخذ تراباً من أثر حافره، ثم أقبل إلى النار فقال لهارون: يا نبي الله، ألقي ما في يدي؟ قال: نعم. ولا يظن هارون إلا أنه كبعض ما جاء به غيره من ذلك الحلي والأمتعة، فقذفه فيها وقال: «كن عجلاً جسداً له خوار»، فكان، للبلاء والفتنة. فقال: ﴿ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴾ طه: ٨٨. فعكفوا عليه، وأحبوه حبا لم يحبوا مثله شيئاً قط. يقول الله عز وجل: (فنسي) أي ترك ما كان عليه من الإسلام يعني السامري ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ ﴾ طه: ٨٩ وكان اسم السامري موسى بن ظفر، وقع في أرض مصر، فدخل في بني إسرائيل. فلما رأى هارون ما وقعوا فيه قال: ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ ﴾طه: ٩٠ - ٩١ فأقام هارون فيمن معه من المسلمين ممن لم يفتتن، وأقام من يعبد العجل على عبادة العجل، وتخوف هارون، إن سار بمن معه من المسلمين، أن يقول له موسى: فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي. وكان له هائباً مطيعاً.

وتأويل قوله تعالى: ﴿ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ يعني وأنتم واضعو العبادة في غير موضعها، لأن العبادة لا تنبغي إلا لله عز وجل، وعبدتم أنتم العجل ظلماً منكم، ووضعاً للعبادة في غير موضعها. وقد دللنا في غير هذا الموضع ممّا

مضى من كتابنا أن أصل كل ظلم، وضع الشيء في غير موضعه، فأغنى ذلك عن إعادته في هذا الموضع.

* * *

﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾البقرة: ٥٢

وتأويل قوله: ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾، يقول: تركنا معاجلتكم بالعقوبة، من بعد ذلك، أي من بعد اتخاذكم العجل إلها.

وأما تأويل قوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾، فإنه يعني به: لتشكروا. ومعنى «لعل» في هذا الموضع معنى «كي». وقد بينت فيما مضى قبل أن أحد معاني «لعل» «كي»، بما فيه الكفاية عن إعادته في هذا الموضع. فمعنى الكلام إذا: ثم عفونا عنكم من بعد اتخاذكم العجل إلها، لتشكروني على عفوي عنكم، إذ كان العفويوجب الشكر على أهل اللب والعقل.

﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

يعني بقوله: ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ واذكروا أيضا إذ آتينا موسى الكتاب والفرقان. ويعني بالكتاب: التوراة، وبالفرقان: الفصل بين الحق والباطل.

إن الفرقان الذي ذكر الله أنه آتاه موسى في هذا الموضع، هو الكتاب الذي فرق به بين الحق والباطل، وهو نعت للتوراة وصفة لها. فيكون تأويل الآية حينئذ: وإذ آتينا موسى التوراة التي كتبناها له في الألواح وفرقنا بها بين الحق والباطل. فيكون الكتاب نعتا للتوراة أقيم مقامها، استغناء به عن ذكر التوراة، ثم عطف عليه بالفرقان، إذ كان من نعتها.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

وتأويل ذلك: اذكروا أيضا إذ قال موسى لقومه من بني إسرائيل: يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم. وظلمهم إياها، كان فعلهم بها ما لم يكن لهم أن يفعلوه بها، ممّا أوجب لهم العقوبة من الله تعالى. وكذلك كل فاعل فعلاً يستوجب به العقوبة من الله تعالى فهو ظالم لنفسه بإيجابه العقوبة لها من الله تعالى. وكان الفعل الذي فعلوه فظلموا به أنفسهم، هو ما أخبر الله عنهم: من ارتدادهم باتخاذهم العجل رباً بعد فراق موسى إياهم، ثم أمرهم موسى بالمراجعة من ذنبهم، والإنابة إلى الله من ردتهم، بالتوبة إليه، والتسليم لطاعته فيما أمرهم به. وأخبرهم أن توبتهم من الذنب الذي ركبوه قتلهم أنفسهم. وقد دلّلنا فيما مضى على أن معنى «التوبة»: الأوبة ممّا يكرهه الله إلى ما يرضاه من طاعته. فاستجاب القوم لما أمرهم به موسى من التوبة مما ركبوا من ذنوبهم إلى ربهم، على ما أمرهم به، كما:

حدثني عباس بن محمد قال، حدثنا حجاج بن محمد، قال ابن جريج، أخبرني القاسم بن أبي بزة أنه سمع سعيد بن جبير ومجاهدا قالا قام بعضهم إلى بعض بالخناجر يقتل بعضهم بعضا لا يحن رجل على رجل قريب ولا بعيد، حتى ألوى موسى بثوبه، فطرحوا ما بأيديهم، فتكشف عن سبعين ألف قتيل. وإن الله أوحى إلى موسى: أن حسبي فقد اكتفيت، فذلك حين ألوى بثوبه.

وأما قوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ ﴾، فإنه يعني بذلك: توبتكم بقتلكم أنفسكم وطاعتكم ربكم، خير لكم عند بارئكم، لأنكم تنجون بذلك من عقاب الله في الآخرة على ذنبكم، وتستوجبون به الثواب منه. وقوله: ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾، أي: بما فعلتم مما أمركم به من قتل بعضكم بعضاً.

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾

وتأويل ذلك: واذكروا أيضا إذ قلتم: يا موسى لن نصدقك ولن نقر بما جئتنا

به، حتى نرى الله جهرة عياناً برفع الساتر بيننا وبينه، وكشف الغطاء دوننا ودونه، حتى ننظر إليه بأبصارنا، كما تجهر الركية، وذلك إذا كان ماؤها قد غطاه الطين، فنقي ما قد غطاه حتى ظهر الماء وصفاً. يقال منه: «قد جهرت الركية أجهرها جهرا وجهرة». ولذلك قيل: «قد جاهر فلان بهذا الأمر مجاهرة وجهاراً».

فذكرهم بذلك جل ذكره اختلاف آبائهم، وسوء استقامة أسلافهم لأنبيائهم، مع كثرة معاينتهم من آيات الله جل وعز وعبره ما تثلج بأقلها الصدور، وتطمئن بالتصديق معها النفوس. وذلك مع تتابع الحجج عليهم، وسبوغ النعم من الله لديهم، وهم مع ذلك مرة يسألون نبيهم أن يجعل لهم إلهاً غير الله. ومرة يعبدون العجل من دون الله. ومرة يقولون: لا نصدقك حتى نرى الله جهرة. وأخرى يقولون له إذا دعوا إلى القتال: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ المائدة: ٢٤. ومرة يقال لهم: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰتِكُمۡ﴾ الأعراف: ١٦١ . فيقولون: حنطة في شعيرة! ويدخلون الباب من قبل أستاههم، مع غير ذلك من أفعالهم التي آذوا بها نبيهم عليه السلام، التي يكثر إحصاؤها. فأعلم ربنا تبارك وتعالى ذكره الذين خاطبهم بهذه الآيات من يهو د بني إسرائيل، الذين كانوا بين ظهراني مهاجر رسول الله (ص)، أنهم لن يعدوا أن يكونوا في تكذيبهم محمداً (ص)، وجحودهم نبوّته، وتركهم الإقرار به وبما جاء به، مع علمهم به، ومعرفتهم بحقيقة أمره كأسلافهم وآبائهم الذين فصل عليهم قصصهم في ارتدادهم عن دينهم مرة بعد أخرى، وتوثبهم على نبيهم موسى (ص) تارة بعد أخرى، مع عظيم بلاء الله جل وعز عندهم، وسبوغ آلائه عليهم.

﴿فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾

اختلف أهل التأويل في صفة الصاعقة التي أخذتهم. فقال بعضهم بما: ماتوا. والصاعقة: نار.

وقال آخـرون: أخذتهم الرجفة، وهي الصاعقة، فماتوا جميعاً. وأصل «الصاعقة» كل أمر هائل رآه أوعاينه أوأصابه حتى يصير من هو له وعظيم شأنه إلى هلاك وعطب، وإلى ذهاب عقل وغمور فهم، (٢) أوفقد بعض آلات الجسم صوتاً كان ذلك أوناراً، أوزلزلة، أو رجفاً. وممّا يدل على أنه قد يكون مصعوقاً وهو حيّ غير ميّت، قول الله عز وجل: ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾الأعراف: ١٤٣، يعني مغشياً عليه.

ويعني بقوله: ﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾، وأنتم تنظرون إلى الصاعقة التي أصابتكم، يقول: أخذتكم الصاعقة عياناً جهاراً وأنتم تنظرون إليها.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾البقرة: ٥٦

عني بقوله: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم ﴾ ثم أحييناكم. وأصل «البعث» إثارة الشيء من محلّه. ومنه قيل: بعث فلان راحلته إذا أثارها من مبركها للسير.

يعني بقوله: ﴿ مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾، من بعد موتكم بالصاعقة التي أهلكتكم.

وقوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾، يقول: فعلنا بكم ذلك لتشكروني على ما أوليتكم من نعمتي عليكم، بإحيائي إياكم، استبقاء مني لكم، لتراجعوا التوبة من عظيم ذنبكم، بعد إحلالي العقوبة بكم بالصاعقة التي أحللتها بكم، فأماتتكم بعظيم خطئكم الذي كان منكم فيما بينكم وبين ربكم.

وهذا القول على تأويل من تأول قوله قول: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم ﴾ ثم أحييناكم.

وقال آخرون: معنى قوله: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم ﴾ أي بعثناكم أنبياء.

وتأويل الكلام على ما تأوله السدي: فأخذتكم الصاعقة، ثم أحييناكم من بعد موتكم، وأنتم تنظرون إلى إحيائنا إياكم من بعد موتكم، ثم بعثناكم أنبياء لعلكم تشكرون.

وزعم السدي أن ذلك من المقدم الذي معناه التأخير، والمؤخر الذي معناه التقديم.

عن الربيع بن أنس في قوله:﴿ فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ ﴾، قال: هم السبعون الذين اختارهم موسى فساروا معه. قال: فسمعوا كلاما، فقالوا: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾. قال: فسمعوا صوتا فصعقوا يقول: ماتوا فذلك قوله: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾البقرة: ٥٦، فبعثوا من بعد موتهم، لأن موتهم ذاك كان عقوبة لهم، فبعثوا لبقية آجالهم.

فهذا ما روي في السبب الذي من أجله قالوا لموسى: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ ولا خبر عندنا بصحة شيء ممّا قاله من ذكرنا قوله في سبب قيلهم ذلك لموسى، تقوم به حجة فيسلم له. وجائز أن يكون ذلك بعض ما قالوه، فإذ كان لا خبر بذلك تقوم به حجة، فالصواب من القول فيه أن يقال: إن الله جل ثناؤه قد أخبر عن قوم موسى أنهم قالوا له: ﴿ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾، كما أخبر عنهم أنهم قالوه. وإنما أخبر الله عز وجل بذلك عنهم الذين خوطبوا بهذه الآيات، توبيخاً لهم في كفرهم بمحمد (ص)، وقد قامت حجّته على من احتج به عليه، ولا حاجة لمن انتهت إليه إلى معرفة السبب الداعي لهم إلى قيل ذلك.

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾البقرة: ٥٧

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ ﴾

عطف على قوله: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾البقرة: ٥٦. فتأويل الآية: ثم بعثناكم من بعد موتكم، وظللنا عليكم الغمام وعدد عليهم سائر ما أنعم به عليهم لعلكم تشكرون. و«الغمام» جمع «غمامة»، كما السحاب جمع سحابة، «والغمام» هو ما غمّ السماء فألبسها من سحاب وقتام، وغير ذلك ممّا يسترُها عن أعين الناظرين. وكل مغطى فالعرب تسميه مغموماً. وقد قيل: إن الغمام التي ظللها الله على بني إسرائيل لم تكن سحاباً.

﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ ﴾

اختلف أهل التأويل في صفة المنّ. فقال بعضهم بما:

المن: صمغة.

وعن قتادة في قوله: ﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴾ يقول: كان المنّ ينزل عليهم مثل الثلج.

وقال آخرون: هو شراب.

وقال آخرون: المن: عسل.

وتظاهرت الأخبار عن رسول الله (ص) أنه قال: «الكمأة مِنَ المَنّ، وماؤها شِفاءٌ للعَيْن». وقال بعضهم: المنّ: شراب حلوكانوا يطبخونه فيشربونه.

﴿ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴾ والسلوى: اسم طائر يشبه السماني، واحده وجماعه بلفظ واحد، كذلك السماني لفظ جماعها وواحدها سواء. وقد قيل: إن واحدة السلوى سلواة.

فإن قال قائل: وما سبب تظليل الله جل ثناؤه الغمام، وإنزاله المن والسلوى على هؤلاء القوم؟

قيل: قد اختلف أهل العلم في ذلك. ونحن ذاكرون ما حضرنا منه:

فحدثنا موسى بن هارون قال، حدّثنا عمرو بن حماد قال، حدّثنا أسباط بن نصر، عن السدي: لما تاب الله على قوم موسى، وأحيا السبعين الذين اختارهم موسى بعد ما أماتهم، أمرهم الله بالسير إلى أريحا، وهي أرض بيت المقدس. فساروا حتى إذا كانوا قريباً منها بعث موسى اثني عشر نقيباً. فكان من أمرهم وأمر الجبارين وأمر قوم موسى، ما قد قص الله في كتابه. فقال قوم موسى لموسى: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾المائدة: ٢٤ . فغضب موسى فدعا عليهم فقال: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾المائدة: ٢٥. فكانت عجلة من موسى عجلها، فقال الله

تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾المائدة: ٢٦ . فلما ضرب عليهم التيه، ندم موسى، وأتاه قومه الذين كانوا معه يطيعونه فقالوا له: ما صنعت بنا يا موسى؟ فلما ندم، أوحى الله إليه: أن لا تأس على القوم الفاسقين أي لا تحزن على القوم الذين سميتهم فاسقين فلم يحزن، فقالوا: يا موسى كيف لنا بماء ههنا ؟ أين الطعام؟ فأنزل ألله عليهم المنّ فكان يسقط على شجر الترنجبين والسلوى وهو طير يُشبه السمانى فكان يأتي أحدهم فينظر إلى الطير، إن كان سمينا ذبحه وإلاّ أرسله، فإذا سمن أتاه. فقالوا: هذا الطعام، فأين الشراب؟ فأمر موسى فضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، فشرب كل سبط من عين. فقالوا: هذا الطعام والشراب؟ فأين الظل؟ فظلل عليهم الغمام. فقالوا: هذا الظل، فأين اللباس؟ فكانت ثيابهم تطول معهم كما تطول الصبيان، ولا يتخرق لهم ثوب، فذلك قوله:﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴾وقوله:﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾البقرة ٦٠.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

البقرة: ٥٧

وهذا أيضاً من الذي استغني بدلالة ظاهره على ما ترك منه. وذلك أن معنى الكلام: كلوا من طيبات ما رزقناكم. فخالفوا ما أمرناهم به وعصوا ربهم، ثم رسولنا إليهم، و»ما ظلمونا»، فاكتفى بما ظهر عما ترك. وقوله: ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ يقول: وما ظلمونا بفعلهم ذلك ومعصيتهم، ﴿ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾. ويعني بقوله: ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾، وما وضعوا فعلهم ذلك وعصيانهم إيانا موضع مضرة علينا ومنقصة لنا، ولكنهم وضعوه من أنفسهم موضع مضرة عليها ومنقصة لها.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ البقرة ٥٨ والقرية التي أمرهم الله جلّ ثناؤه أن يدخلوها، فيأكلوا فيها رغداً حيث شاؤوا فيما ذكر لنا: بيت المقدس.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾

يعني بذلك: فكلوا من هذه القرية حيث شئتم عيشاً هنياً واسعاً بغير حساب. وقد بينا معنى الرغد فيما مضى من كتابنا، وذكرنا أقوال أهل التأويل فيه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾

أما الباب الذي أمروا أن يدخلوه، فإنه قيل: هو باب الحطة من بيت المقدس.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ الأعراف: ١٦١

وتأويل قوله: ﴿حِطَّةٌ﴾: فعلة، من قول القائل: حطّ الله عنك خطاياك فهو يحطها حطّة، بمنزلة الردة والحدّة والمدة من حدّدت ومددت.

واختلف أهل التأويل في تأويله، فقال بعضهم بنحو الذي قلنا في ذلك.

وقال آخرون: معنى ذلك: قولوا لا إله إلا الله. كأنهم وجهو ا تأويله: قولوا الذي يحطّ عنكم خطاياكم، وهو قول لا إله إلا الله.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ﴾

يعني بقوله: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ﴾ نتغمّد لكم بالرحمة خطاياكم ونسترها عليكم، فلا نفضحكم بالعقوبة عليه. وأصل الغفر: التغطية والستر، فكل ساتر شيئاً فهو غافره.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿خَطَٰيَٰكُمْ﴾ والخطايا جمع خطية بغير همز كما المطايا جمع مطية، والحشايا جمع حشية.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

وتأويل ذلك ما رُوي لنا عن ابن عباس، وهو ما:

حدثني حجاج قال، قال ابن جريج، قال ابن عباس: ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، من كان منكم محسناً زيد في إحسانه، ومن كان مخطئاً نغفر له خطيئته.

فتأويل الآية: وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية مباحاً لكم كل ما فيها من الطيبات، موسعاً عليكم بغير حساب؛ وادخلوا الباب سجداً، وقولوا: سجودنا هذا لله حطّة من ربنا لذنوبنا يحط به آثامنا، نتغمد لكم ذنوب المذنب منكم فنسترها عليه، ونحط أوزاره عنه، وسنزيد المحسن منكم إلى إحساننا السالف عنده إحساناً.

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾البقرة ٥٩

وتأويل قوله: ﴿فَبَدَّلَ﴾، فغير. ويعني بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾، الذين فعلوا ما لم يكن لهم فعله. ويعني بقوله: ﴿قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾، بدلوا قولاً غير الذي أمروا أن يقولوه، فقالوا خلافه. وذلك هو التبديل والتغيير الذي كان منهم. وكان تبديلهم بالقول الذي أمروا أن يقولوا قولاً غيره، ما:

أخبرنا عبد الرازق قال، أخبرنا معمر عن همام بن منبه، أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله (ص): قال الله لبني إسرائيل: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾، فبدلوا ودخلوا الباب يزحفون على أستاههم، وقالوا: حبة في شعيرة .

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾يعني بقوله: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾، على الذين فعلوا ما لم يكن لهم فعله، من تبديلهم القول الذي أمرهم الله جل وعز أن يقولوه قولاً غيره، ومعصيتهم إياه فيما أمرهم به، وبركوبهم ما قد نهاهم عن ركوبه، ﴿رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾. و«الرجز» في لغة العرب، العذاب، وهو غير «الرجز». وذلك أن

الرجز: البثر، ومنه الخبر الذي روي عن النبي (ص) في الطاعون أنه قال: «إنه رجز عذب به بعض الأمم الذين قبلكم».

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾.

وقد دلّلنا في ما مضى من كتابنا هذا على أن معنى»الفسق»: الخروج من الشيء. فتأويل قوله: ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ إذا: بما كانوا يتركون طاعة الله عز وجل، فيخرجون عنها إلى معصيته وخلاف أمره.

﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ البقرة ٦٠

يعني بقوله: ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ﴾، وإذ استسقانا موسى لقومه، أي سألنا أن نسقي قومه ماء. فترك ذكر المسؤول ذلك، والمعنى الذي سأل موسى، إذ كان فيما ذكر من الكلام الظاهر دلالة على معنى ما ترك. وكذلك قوله: ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ ﴾، ممّا استغني بدلالة الظاهر على المتروك منه. وذلك أن معنى الكلام: فقلنا اضرب بعصاك الحجر، فضربه، فانفجرت. فترك ذكر الخبر عن ضرب موسى الحجر، إذ كان فيما ذكر دلالة على المراد منه. وكذلك قوله: ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ ﴾ إنما معناه: قد علم كل أناس منهم مشربهم. فترك ذكر «منهم» لدلالة الكلام عليه. وقد دللنا فيما مضى على أن «أناس» جمع لا واحد له من لفظه، وأن «الإنسان» لوجمع على لفظه لقيل: أناسي وأناسية. وقوم موسى هم بنوإسرائيل، الذين قص الله عز وجل قصصهم في هذه الآيات. وإنّما استسقى لهم ربه الماء في الحال التي تاهو ا فيها في التيه، كما: حدثنا بشر بن معاذ قال، حدثنا يزيد بن زريع، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة قوله: ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ﴾

الآية قال، كان هذا إذ هم في البرية اشتكوا إلى نبيهم الظمأ، فأمروا بحجر طوري أي من الطور أن يضربه موسى بعصاه. فكانوا يحملونه معهم، فإذا نزلوا ضربه موسى بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، لكل سبط عين معلومة مستفيض ماؤها لهم.

﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ ﴾.

وهذا أيضا مما استغني بذكر ما هو ظاهر منه، عن ذكره ما ترك ذكره. وذلك أن تأويل الكلام: ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ﴾، ضربه فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، قد علم كل أناس مشربهم، فقيل لهم: كلوا واشربوا من رزق الله. أخبر الله جل ثناؤه أنه أمرهم بأكل ما رزقهم في التيه من المن والسلوى، وبشرب ما فجر لهم فيه من الماء من الحجر المتعاور، الذي لا قرار له في الأرض، ولا سبيل إليه لمالكيه، يتدفق بعيون الماء، ويزخر بينابيع العذب الفرات، بقدرة ذي الجلال والإكرام. ثم تقدم جل ذكره إليهم مع إباحتهم ما أباح، وإنعامه عليهم بما أنعم به من العيش الهنيء بالنهي عن السعي في الأرض فساداً، والعثا فيها استكباراً، فقال جل ثناؤه لهم: ﴿ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾٦٠ يعني بقوله: ﴿ وَلَا تَعْثَوْا۟ ﴾لا تطغوا، ولا تسعوا في الأرض مفسدين.

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾البقرة٦١

قد دللنا فيما مضى قبل على معنى الصبر وأنه كف النفس وحبسها عن الشيء. فإذ كان ذلك كذلك، فمعنى الآية إذا: واذكروا إذا قلتم يا معشر بني إسرائيل: لن نطيق حبس أنفسنا على طعام واحد وذلك «الطعام الواحد»، هو ما أخبر الله جل ثناؤه أنه أطعمهموه في تيههم، وهو «السلوى» في قول بعض أهل التأويل، وفي قول وهب بن منبّه هو «الخبز النقي مع اللحم» فاسأل لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من البقل والقثاء، وما سُمّى الله مع ذلك، وذكر أنهم سألوه موسى. وكان سبب مسألتهم موسى ذلك فيما بلغنا، ما: حدثنا به بشر بن معاذ قال، حدثنا يزيد بن زريع قال، حدثنا سعيد، عن قتادة قوله: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ ﴾ قال: كان القوم في البرية قد ظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى، فملوا ذلك، وذكروا عيشاً كان لهم بمصر، فسألوه موسى. فقال الله تعالى: ﴿ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾.

فتأويل الكلام إذاً على ما وصفنا من أمر»من»: فادع لنا ربك يخرج لنا بعض ما تنبت الأرض من بقلها وقثائها. و»البقل» و»القثاء» و»العدس» و»البصل»، هو ما قد عرفه الناس بينهم من نبات الأرض وحبّها. وأمّا «الفوم»، فإن أهل التأويل اختلفوا فيه. فقال بعضهم: هو الحنطة والخبز.

وقال آخرون: هو الثوم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾يعني بقوله: ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾، قال: لهم موسى: أتأخذون الذي هو أخس خطراً وقيمة وقدراً من العيش، بدلاً بالذي هو خير منه خطراً وقيمة وقدراً؟ وذلك كان استبدالهم. وأصل «الاستبدال»: هو ترك شيء لآخر غيره مكان المتروك.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡ ﴾

وتأويل ذلك: فدعا موسى، فاستجبنا له، فقلنا لهم: ﴿ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا ﴾البقرة٦١، وهو من المحذوف الذي اجتزئ بدلالة ظاهره على ذكر ما حذف وترك منه. وقد دللنا فيما مضى على أن معنى «الهبوط» إلى المكان، إنّما هو النزول إليه والحلول به.

فتأويل الآية إذاً: ﴿ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾. قال لهم موسى: أتستبدلون الذي هو أخس وأردأ من العيش، بالذي هو خير منه. فدعا لهم موسى ربه أن يعطيهم ما سألوه، فاستجاب الله له دعاءه، فأعطاهم ما طلبوا، وقال الله لهم: ﴿ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡ ﴾.

وقد اختلف أهل التأويل في ذلك.

حدثنا بشر بن معاذ، قال: حدثنا يزيد بن زريع، عن سعيد، عن قتادة:﴿ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا ﴾البقرة٦١ أي مصراً من الأمصار ﴿ فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡ ﴾.

وقال آخرون: هي مصر التي كان فيها فرعون.

ومن حجّة من قال: إن الله جل ثناؤه إنّما عنى بقوله:﴿ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا ﴾البقرة٦١ مصراً من الأمصار دون مصر فرعون بعينها، أن الله جعل أرض الشام لبني إسرائيل مساكن بعد أن أخرجهم من مصر، وإنما ابتلاهم بالتيه بامتناعهم على موسى في حرب الجبابرة، إذ قال لهم:﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ ﴾ إلى قوله ﴿ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ المائدة: ٢١ - ٢٤، فحرم الله جل وعز على قائلي ذلك فيما ذكر لنا دخولها حتى هلكوا في التيه. وابتلاهم بالتيهان في الأرض أربعين سنة، ثم أهبط ذريتهم الشام، فأسكنهم الأرض المقدّسة، وجعل هلاك الجبابرة على أيديهم مع يوشع بن نون بعد وفاة موسى بن عمران. فرأينا الله جل وعز قد

أخبر عنهم أنه كتب لهم الأرض المقدسة، ولم يخبرنا عنهم أنه ردهم إلى مصر بعد إخراجه إياهم منها، فيجوز لنا أن نقرأ: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾البقرة٦١، ونتأوله أنه ردهم إليها.

والذي نقول به في ذلك أنه لا دلالة في كتاب الله على الصواب من هذين التأويلين، ولا خبر به عن الرسول (ص) يقطع مجيئه العذر. وأهل التأويل متنازعون تأويله.

فأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب أن يقال: إن موسى سأل ربه أن يعطي قومه ما سألوه من نبات الأرض على ما بينه الله جل وعز في كتابه وهم في الأرض تائهو ن، فاستجاب الله لموسى دعاءه، وأمره أن يهبط بمن معه من قومه قراراً من الأرض التي تنبت لهم ما سأل لهم من ذلك، إذ كان الذي سألوه لا تنبته إلا القرى والأمصار، وأنه قد أعطاهم ذلك إذ صاروا إليه. وجائز أن يكون ذلك القرار»مصر»، وجائز أن يكون «الشأم» .

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ﴾

يعني بقوله: ﴿وَضُرِبَتۡ﴾ أي فُرضت.

وأما «المسكنة» فإنها مصدر «المسكين». يقال: «ما فيهم أسكن من فلان» و»ما كان مسكيناً» و»لقد تمسكن مسكنة». ومن العرب من يقول: «تمسكن تمسكناً». و»المسكنة» في هذا الموضع مسكنة الفاقة والحاجة، وهي خشوعها وذلها، كما:

أخبرنا ابن وهب قال، قال ابن زيد في قوله: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ﴾، قال: هؤلاء يهود بني إسرائيل. قلت له: هم قبط مصر؟ قال: وما لقبط مصر وهذا، لا والله ما هم هم، ولكنهم اليهود، يهود بني إسرائيل. فأخبرهم الله جل ثناؤه أنه يبدلهم بالعز ذلا وبالنعمة بؤساً، وبالرضا عنهم غضباً، جزاء منه لهم على كفرهم بآياته، وقتلهم أنبياءه ورسله، اعتداء وظلماً

منهم بغير حق، وعصيانهم له، وخلافاً عليه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾

يعني بقوله: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ انصرفوا ورجعوا. ولا يقال «باؤوا» إلا موصولاً إمّا بخير، وإمّا بشر. يقال منه: «باء فلان بذنبه يبوء به بوءا وبواء». ومنه قول الله عز وجل ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾ المائدة: ٢٩

يعني: تنصرف متحملهما وترجع بهما، قد صارا عليك دوني.

فمعنى الكلام إذا: ورجعوا منصرفين متحملين غضب الله، قد صار عليهم من الله غضب، ووجب عليهم منه سخط.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ﴾ البقرة ٦١

يعني بقوله جل ثناؤه: «ذلك» ضرب الذلّة والمسكنة عليهم، وإحلاله غضبه بهم. فدل بقوله: «ذلك» وهي يعني به ما وصفنا على أن قول القائل: «ذلك يشمل المعاني الكثيرة إذا أشير به إليها.

ويعني بقوله: ﴿بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾، من أجل أنهم كانوا يكفرون. يقول: فعلنا بهم من إحلال الذل والمسكنة والسخط بهم من أجل أنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق.

فمعنى الكلام إذاً: فعلنا بهم ذلك من أجل أنهم يجحدون حجج الله على توحيده، وتصديق رسله ويدفعون حقيقتها، ويكذبون بها.

ويعني بقوله: ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ﴾ البقرة ٦١ أنهم كانوا يقتلون رسل الله بغير إذن الله لهم يقتلهم منكرين رسالتهم جاحدين نبوّتهم.

القول في تاويل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ البقرة ٦١

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ ردّ على «ذلك» الأولى. ومعنى الكلام: وضربت عليهم الذلة والمسكنة، وباؤوا بغضب من الله من أجل كفرهم بآيات الله، وقتلهم

النبيين بغير الحق، من أجل عصيانهم ربهم، واعتدائهم حدوده، فقال جل ثناؤه. ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ﴾البقرة ٦١، والمعنى: ذلك بعصيانهم وكفرهم معتدين. و»الاعتداء»، تجاوز الحد الذي حده الله لعباده إلى غيره. وكل متجاوز حد شيء إلى غيره فقد تعداه إلى ما جاوز إليه. ومعنى الكلام: فعلت بهم ما فعلت من ذلك، بما عصوا أمري، وتجاوزوا حدي إلى ما نهيتهم عنه.

***الطبرسي:**

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾البقرة ٤٩

المعنى: ثم فصل سبحانه في هذه الآية النعم التي أجملها فيما قبل، فقال: واذكروا ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم ﴾ أي: خلصناكم من قوم ﴿ فِرْعَوْنَ ﴾ وأهل دينه ﴿ يَسُومُونَكُمْ ﴾ يلزمونكم ﴿ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ وقيل: يذيقونكم ويكلفونكم ويعذبونكم، والكل متقارب. واختلفوا في العذاب الذي نجاهم الله تعالى منه، فقال بعضهم ما ذكر في الآية من قوله: ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾ وهذا تفسيره. وقيل: أراد به ما كانوا يكلفونهم من الأعمال الشاقة، فمنها أنهم جعلوهم أصنافاً: فصنف يخدمونهم، وصنف يحرثون لهم، ومن لا يصلح منهم للعمل ضربوا عليهم الجزية. وكانوا يذبحون أبناءهم، ويستحيون نساءهم مع ذلك، ويدل عليه قوله تعالى في سورة إبراهيم ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ ﴾ فعطفه على ذلك يدل على أنه غيره. وقوله: ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾ معناه يقتلون أبناءكم، ويستحيون بناتكم، يستبقونهن، ويدعونهن أحياء، ليستعبدن، وينكحن على وجه الاسترقاق. وهذا أشد من الذبح. وإنما لم يقل بناتكم، لأنه سماهن بالاسم الذي يؤول حالهم إليه. وقيل: إنما قال: ﴿ نِسَآءَكُمْ ﴾ على التغليب، فإنهم كانوا يستبقون الصغار والكبار، يقال: أقبل الرجال، وإن كان فيهم صبيان. ويجوز أيضاً أن يقع اسم النساء على

الصغار والكبار، كالأبناء. وقوله: ﴿ وَفِي ذَٰلِكُم ﴾ أي: وفي سومكم العذاب، وذبح الأبناء ﴿ بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ أي: لما خلى بينكم وبينه حتى فعل بكم هذه الأفاعيل. وقيل: في نجاتكم من فرعون وقومه نعمة عظيمة من الله عليكم.

﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾البقرة: ٥٠

المعنى: ثم ذكر سبحانه نعمة أخرى فقال: واذكروا ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ ﴾ أي: فرقنا بين الماءين حتى مررتم فيه، فكنتم فرقاً بينهما، تمرون في طريق يبس. وقيل معناه: فرقنا البحر بدخولكم إياه، فوقع بين كل فريقين من البحر طائفة منكم، يسلكون طريقاً يابساً، فوقع الفرق بينكم. وقيل: فرقنا بكم أي: بسببكم البحر، لتمروا فيه. ﴿ فَأَنجَيْنَٰكُمْ ﴾ يعني من البحر والغرق وقوله: ﴿ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾البقرة: ٥٠

ولم يذكر غرق فرعون، لأنه قد ذكره في مواضع كقوله: ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ﴾ فاختصر لدلالة الكلام عليه، لأن الغرض مبني على إهلاك فرعون وقومه، ونظيره قول القائل: دخل جيش الأمير البادية ويكون الظاهر أن الأمير معهم. ويجوز أن يريد بآل فرعون نفسه، كقوله: ﴿ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ﴾، يعني موسى وهارون.

وقوله: ﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ معناه: وأنتم تشاهدون أنهم يغرقون. وهذا أبلغ في الشماتة، وإظهار المعجزة. وقيل معناه: وأنتم بمنظر ومشهد منهم، حتى لو نظرتم إليهم لأمكنكم ذلك، لأنهم كانوا في شغل من أن يروهم كما يقال: دور بني فلان تنظر إلى دور آل فلان أي: هي بإزائها، وبحيث لو كان مكانها ما ينظر، لأمكنه أن ينظر إليه، وهو قول الزجاج، وقريب مما قاله الفراء. والأول أصح لأنهم لم يكن لهم شغل شاغل عن الرؤية، فإنهم كانوا قد جاوزوا البحر، وتظاهرات أقوال المفسرين على أن أصحاب موسى (ع) رأوا انفراق البحر، والتطام أمواجه بآل فرعون، حتى غرقوا، فلا وجه للعدول عن الظاهر.

﴿ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ البقرة: ٥١

المعنى: واذكروا ﴿ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰٓ ﴾ أن نؤتيه الألواح فيها التوراة، والبيان، والشفاء، على رأس ﴿ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ أو عند انقضاء أربعين ليلة، أو عند تمام أربعين ليلة. وإنما قلنا إنّ قوله اذكروا مضمر فيه، لأن الله تعالى قال قبل هذا: ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ البقرة: ٤٧

فإذا: ههنا معطوفة على الآيات المتقدمة، وهذه الأربعون ليلة هي التي ذكرها الله في سورة الأعراف، فقال: ﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ ﴾ الأعراف: ١٤٢ وهي: ذو القعدة، وعشر من ذي الحجة. قال المفسرون: لما عاد بنو إسرائيل إلى مصر بعد إنجائهم من البحر، وهلاك فرعون وقومه، وعدهم الله إنزال التوراة والشرائع، فخلف موسى أصحابه، واستخلف هارون عليهم. فمكث على الطور أربعين ليلة، وأنزل عليه التوراة في الألواح.

وقوله: ﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ أي: اتخذتموه إلهاً لأن بنفس فعلهم لصورة العجل لا يكونون ظالمين، لأن فعل ذلك ليس بمحظور، وإنما هو مكروه. وأما الخبر الذي روي أنه (ص) (لعن المصورين)، فالمراد به من شبه الله بخلقه، أو اعتقد فيه أنه صورة. وقوله: ﴿ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ أي: من بعد غيبة موسى، وخروجه. وقيل: من بعد وعد الله إياكم بالتوراة. وقيل: من بعد غرق فرعون، وما رأيتم من الآيات، الكل محتمل ﴿ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ البقرة: ٥١

أي مضرون بأنفسكم.

روي عن ابن عباس قال: كان السامري رجلاً من أهل باجرمي. قيل: كان إسمنسيا. وقال ابن عباس: اسمه موسى بن ظفر وكان من قوم يعبدون البقر، وكان حب عبادة البقر في نفسه، وقد كان أظهر الإسلام في بني إسرائيل. فلما قصد موسى إلى ربه، وخلّف هارون في بني إسرائيل قال هارون لقومه: قد حملتم أوزاراً من زينة القوم، يعني آل فرعون، فتطهروا منها، فإنها نجس، يعني أنهم استعاروا من القبط حلياً، واستبدوا بها. فقال هارون: طهروا أنفسكم منها

فإنها نجسة، وأوقد لهم ناراً، فقال: اقذفوا ما كان معكم فيها. فجعلوا يأتون بما كان معهم من تلك الأمتعة والحلي فيقذفون به فيها. قال: وكان السامري رأى أثر فرس جبرائيل (ع)، فأخذ تراباً من أثر حافره، ثم أقبل إلى النار فقال لهارون: يا نبيّ الله! أَأُلقي ما في يدي قال: نعم، وهو لا يدري ما في يده، ويظن أنه مما يجيء به غيره من الحلي هذا إلهكم وإله موسى.

فعكفوا عليه وأحبوه حباً لم يحبوا مثله شيئاً قط. قال ابن عباس: فكان البلاء والفتنة، ولم يزد على هذا. وقال الحسن: صار العجل لحماً ودماً. وقال غيره لا يجوز ذلك لأنه من معجزات الأنبياء. ومن وافق الحسن قال: إنّ القبضة من الملك كان قد أجرى العادة بأنها إذا طرحت على أي صورة كانت حييت فليس ذلك بمعجزة، إذ سبيل السامري فيه سبيل غيره. ومن لم يجز انقلابه حياً، تأول الخوار على أن السامري صاغ عجلاً، وجعل فيه خروقاً يدخلها الريح، فيخرج منها صوت كالخوار، ودعاهم إلى عبادته فأجابوه وعبدوه، عن أبي علي الجبائي.

﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ البقرة: ٥٢

المعنى: ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم ﴾

أي: وضعنا عنكم العقاب الذي استحققتموه بقبول توبتكم من عبادة العجل ﴿ مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ أي: من بعد اتخاذكم إياه إلهاً. وقيل: معناه تركنا معاجلتكم بالعقاب من بعد اتخاذكم العجل إلهاً ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ لكي تشكروا الله على عفوه عنكم، وسائر نعمه عليكم. وقيل: معناه التعريض أي: عرفناكم للشكر. وفي هذه الآية دلالة على وجوب شكر النعمة، وعلى أن العفو عن الذنب بعد التوبة، نعمة من الله على عباده ليشكروه. ومعنى قولنا في الله: إنه غفور شكور، إنه يجازي العبد على طاعاته من غير أن ينقصه شيئاً من حقه، فجعل المجازاة على الطاعة شكراً في مجاز اللغة، ولا يستحق الإنسان

الشكر على نفسه، لأنه لا يكون منعماً على نفسه. فالنعمة تقتضي منعماً غير المنعم عليه، كما أنّ القرض يقتضي مستقرضاً غير المقرض. وقد يصح أنْ يحسن الإنسان إلى نفسه، كما يصح أن يسيء إليها، لأن الإحسان من الحسن. فإذا فعل بها فعلاً حسناً ينتفع به، كان محسناً إليها بذلك الفعل، وإذا فعل بها فعلاً قبيحاً تستضر به، كان مسيئاً إليها.

ولا يستحق الكافر الشكر على الوجه الذي يستحقه المؤمن، لأن المؤمن من يستحق الشكر على وجه الإجلال والإعظام، والكافر لا يستحقه كذلك، وإنما يجب له مكافأة نعمته كما يجب قضاء دينه على وجه الخروج منه إليه، من غير تعظيم له.

والفرق بين الشكر والمكافأة: إنّ المكافأة من التكافي، وهو التساوي، وليس كذلك الشكر. ففي المكافأة للنعمة دلالة على أنه قد استوفى حقها، وقد يكون الشكر مقصراً عنها، وإنْ كان ليس على المنعم عليه أكثر منه، إلا أنه كلما ازداد من الشكر حسن الإزدياد، وإنْ لم يكن واجباً، لأن الواجب لا يكون إلاَّ متناهياً، وذلك كالشكر لنعمة الله تعالى لو أن به غاية الاستكثار لم يكون ينتهي إلى حد لا يجوز له الازدياد، لعظم الله سبحانه، وصغر شكر العبد.

﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

المعنى: ﴿ وَ ﴾ اذكروا ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا ﴾ أي: أعطينا ﴿ مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ التوراة ﴿ وَٱلْفُرْقَانَ ﴾ اختلفوا فيه على وجوه أحدها: وهو قول ابن عباس المراد به التوراة أيضاً، وإنما عطفه عليه لاختلاف اللفظين كقول عنترة: وأَقفَرَ بعدَ أم الهَيْثَم، وقال عدي بن زيد:

وَقدَّدَتِ الأَديمَ لِراهِشَيْهِ، وَأَلْفى قوْلَها كَذِباً، وَمَيْنا

والميْن: الكذب وثانيها: إنّ الكتاب عبارة عن التوراة. والفرقان: أنفرق البحر الذي أتاه موسى (ع). وثالثها: إن المراد بالفرقان بين الحلال والحرام والفرق

بين موسى وأصحابه المؤمنين، وبين فرعون وأصحابه الكافرين بأشياء كثيرة منها: إنه نجى هؤلاء وأغرق هؤلاء ورابعها: إنّ المراد بالفرقان القرآن، ويكون تقديره: وآتينا موسى التوراة، وآتينا محمداً الفرقان، فحذف ما حذف لدلالة ما أبقاهُ عليه، كما حذف الشاعر في قوله:

تَراهُ كأنَّ اللهَ يَجْدَعُ أنْفَهُ، وعيْنَيْهِ، إنْ مَوْلاهُ كانَ لهُ وفر

يريد: ويفقأ عينيه، لأن الجدع لا يكون للعينين، واكتفى بيجدع عن يفقأ وقال آخر:

يا ليْتَ بعْلك قدْ غَدا مُتَقَلّداً سيْفاً، ورُمحه

أراد وحاملاً رمحاً، وهو قول الفراء، وقطرب، وثعلب. وضعّف قوم هذا الوجه؛ لأن فيه حمل القرآن على المجاز من غير ضرورة، مع أنه تعالى أخبر أنه موسى الفرقان في قوله: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾الأنبياء: ٤٨ . وقوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أي: لكي تهتدوا بما في التوراة من البشارة بمحمد (ص)، وبيان صفته.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

المعنى: ﴿وَ﴾ واذكروا ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ﴾ الذين عبدوا العجل عند رجوعه إليهم: ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم ﴾أي: أضررتم بأنفسكم، ووضعتم العبادة غير موضعها ﴿ بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ معبوداً وظلمهم إياها فعلهم بها ما لم يكن لهم أن يفعلوه مما يستحق به العقاب، وكذلك كل من فعل فعلاً يستحق به العقاب، فهو ظالم لنفسه ﴿ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ﴾ أي: ارجعوا إلى خالقكم ومُنشئكم بالطاعة والتوحيد، وجعل توبتهم الندم مع العزم، وقتل النفس جميعاً. وهنا إضمار باختصار كأنه لما قال لهم فتوبوا إلى بارئكم، قالوا: كيف؟ قال: ﴿ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أي: ليقتل بعضكم بعضاً بقتل

البريء المجرم، عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وغيرهم. وهذا كقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ النور: ٦١ أي: ليسلم بعضكم على بعض وقيل: معناه استسلموا للقتل، فجعل استسلامهم للقتل قتلاً منهم لأنفسهم على وجه التوسع، عن ابن إسحاق، واختاره الجبائي.

واختلفوا في المأمور بالقتل: فروي أن موسى أمرهم أن يقوموا صفين، فاغتسلوا ولبسوا أكفانهم، وجاء هارون بإثني عشر ألفاً ممن لم يعبدوا العجل، ومعهم الشفار المرهفة، وكانوا يقتلونهم. فلما قتلوا سبعين ألفاً تاب الله على الباقين، وجعل قتل الماضين شهادة لهم. وقيل: إن السبعين الذين كانوا مع موسى في الطور، هم الذين قتلوا ممن عبد العجل سبعين ألفاً. وقيل: إنهم قاموا صفين فجعل يطعن بعضهم بعضاً حتى قتلوا سبعين ألفاً. وقيل: غشيتهم ظلمة شديدة، فجعل بعضهم يقتل بعضاً، ثم انجلت الظلمة فأجلوا عن سبعين ألف قتيل.

وروي أن موسى وهارون وقفا يدعوان الله ويتضرعان إليه، وهم يقتل بعضهم بعضاً حتى نزل الوحي برفع القتل، وقبلت توبة من بقي. وذكر إبن جريج أن السبب في أمرهم بقتل أنفسهم أن الله تعالى علم أن ناساً منهم ممن لم يعبد العجل لم ينكروا عليهم ذلك، مخافة القتل، مع علمهم بأن العجل باطل، فلذلك ابتلاهم الله بأن يقتل بعضهم بعضاً. وإنما امتحنهم الله تعالى بهذه المحنة العظيمة لكفرهم بعد الدلالات والآيات العظام. وقال الرماني: لا بد أن يكون في الأمر بالقتل لطف لهم، ولغيرهم، كما يكون في استسلام القاتل لطف له ولغيره.

فإن قيل: كيف يكون في قتلهم نفوسهم لطف لهم، ولا تكليف عليهم بعد القتل، واللطف لا يكون لطفاً فيما مضى، ولا فيما يقارنه؟ فالجواب: إن القوم أن كلفوا أن يقتل بعضهم بعضاً، فكل واحد منهم يقصد قتل غيره، ويجوز أن يبقى بعده فيكون القتل لطفاً له فيما بعد، ولو كان بمقدار زمان يفعل

فيه واجباً أو يمتنع عن قبيح. وهذا كما تقول في عباداتنا بقتال المشركين، وإن الله تعبدنا أن نقاتل حتى نَقتل أو نُقتل، ومدحنا على ذلك. وكذلك روى أهل السير أن الذين عبدوا العجل تعبدوا بأن يصبروا على القتل، حتى يقتل بعضهم بعضاً، فكان القتل شهادة لمن قتل، وتوبة لمن بقي. وإنما تكون شبهة لو أُمروا بأن يقتلوا نفوسهم بأيديهم، ولو صح ذلك لم يمتنع أن يكونوا أُمروا بأن يفعلوا بنفوسهم الجراح التي تفضي إلى الموت، وإن لم يزل معها العقل فينافي التكليف.

وأما على القول الآخر إنهم أُمروا بالاستسلام للقتل والصبر عليه، فلا مسألة لأنهم ما أُمروا بقتل نفوسهم، فعلى هذا يكون قتلهم حسناً، لأنه لو كان قبيحاً لما أُمروا بالاستسلام له، ولذلك نقول: لا يجوز أنْ يتعبّد نبي، ولا إمام، بأن يستسلم للقتل مع قدرته على الدفع عن نفسه، فلا يدفعه، لأن في ذلك استسلاماً للقبيح مع القدرة على دفعه، وذلك لا يجوز، وإنما كان يقع قتل الأنبياء والأئمة (ع)، على وجه الظلم، وارتفاع التمكن من المنع، غير أنه لا يمتنع من أن يتعبد بالصبر على الدفاع، وتحمّل المشقة في ذلك، وإن قتله غيره ظلماً. والقتل، وإنَّ كان قبيحاً بحكم العقل، فهو مما يجوز تغيره بأن يصير حسناً، لأنه جار مجرى سائر الآلام وليس يجري ذلك مجرى الجهل والكذب، في أنه لا يصير حسناً قط.

ووجه الحسن في القتل أنه لطف على ما قلناه، وأيضاً فكما يجوز من الله تعالى أن يميت الحي، فكذلك يجوز أن يأمرنا بإماتته، ويعوضه على الآلام التي تدخل عليه، ويكون فيه لطف على ما ذكرناه.

وقوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ ﴾ إشارة إلى التوبة مع القتل لأنفسهم على ما أمرهم الله به بدلالة قوله: ﴿ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ فقوله: ﴿ فَتُوبُوٓاْ ﴾ دال على التوبة فكأنها مذكورة وقوله: ﴿ فَٱقْتُلُوٓاْ ﴾ دال على القتل، فكأنه قال: إن التوبة وقتل النفس في مرضاة الله كما أمركم به،

وإنْ كان فيه مشقة عظيمة خير لكم عند خالقكم من إيثار الحياة الدنيا، لأن الحياة الدنيا لا تبقى، بل تفنى، وتحصلون بعد الحياة على عذاب شديد. وإذا قتلتم أنفسكم كما أمركم الله به، زالت مشقة القتل عن قريب، وبقيتم في نعيم دائم لا يزول ولا يبيد. وكرر ذكر ﴿ بَارِئِكُمْ ﴾ تعظيماً لما أتوا به مع كونه خالفاً لهم.

وقوله: ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ ها هنا إضمار تقديره ففعلتم ما أمرتم به فتاب عليكم، أو فقتلتم أنفسكم فتاب عليكم، أي: قبل توبتكم ﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ ﴾ أي: قابل التوبة عن عباده مرة بعد مرة. وقيل: معناه قابل التوبة عن الذنوب العظام ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ يرحمكم إذا تبتم، ويدخلكم الجنة. وفي هذه الآية دلالة على أنه يجوز أنْ يشترط في التوبة سوى الندم ما لا يصح التوبة إلاَّ به، كما أُمروا بالقتل.

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾

المعنى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ ﴾ أي: لن نصدقك في قولك إنك نبي مبعوث ﴿ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ أي: علانية، فيخبرنا بأنك نبي مبعوث. وقيل: معناه إنا لا نصدقك فيما تخبر به من صفات الله تعالى، وما يجوز عليه، وما لا يجوز عليه، حتى نرى الله جهرة أي: علانية وعياناً فيخبرنا بذلك. وقيل: إنه لما جاءهم بالألواح وفيها التوراة، قالوا: لن نؤمن بأن هذا من عند الله حتى نراه عياناً. وقال بعضهم: إنَّ قوله: ﴿ جَهْرَةً ﴾ صفة لخطابهم لموسى أنهم جهروا به، وأعلنوه، وتقديره إذا قلتم جهرة لن نؤمن لك حتى نرى الله، والأول أقوى ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾ أي: الموت ﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ إلى أسباب الموت. وقيل: إلى النار، وإنما قرع الله سبحانه اليهود

وبسؤال أسلافهم الرؤية من حيث إنهم سلكوا طريقتهم في المخالفة

للنبي الذي لزمهم اتباعه، والتصديق بجميع ما أتى به، فجروا على عادة أسلافهم الذين كانوا يسألون تارة نبيهم أن يجعل لهم إلهاً غير الله، ومرة يعبدون العجل من دون الله، وطوراً يقولون: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة.

واستدل أبو القاسم البلخي بهذه الآية على أن الرؤية لا تجوز على الله تعالى، قال: لأنها إنكار تضمن أمرين: ردهم على نبيهم، وتجويزهم الرؤية على ربهم. ويؤيد ذلك قوله تعالى فقد سألوا موسى أكبر من ذلك، فقالوا أرنا الله جهرة. فدل ذلك على أن المراد إنكار الأمرين. وتدل هذه الآية أيضاً على أن قول موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾ كان سؤالاً لقومه، لأنه لا خلاف بين أهل التوراة أنّ موسى (ع)، لم يسأل الرؤية إلاَّ دفعة واحدة، وهي التي سألها لقومه.

﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ البقرة: ٥٦

المعنى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم﴾ أي: ثم أحييناكم ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ﴾ لاستكمال آجالكم، عن الحسن، وقتادة. وقيل: إنهم سألوا بعد الإفاقة أن يبعثوا أنبياء، فبعثهم الله أنبياء، عن السدي. فيكون معناه: بعثناكم أنبياء. وأجمع المفسرون إلاَّ شرذمة يسيرة، أن الله لم يكن أمات موسى كما أمات قومه، ولكن غشي عليه بدلالة قوله: ﴿أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ الأعراف: ١٤٣ والإفاقة إنما تكون من الغشيان.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ أي: لكي تشكروا الله على نعمه التي منها رده الحياة إليكم. وفي هذا إثبات لمعجزة نبينا محمد (ص)، واحتجاج على مشركي العرب الذين كانوا غير مؤمنين بالبعث، لأنه كان يذكر لهم من أخبار الذين بعثهم الله الدنيا، فكان يوافقه على ذلك من يخالفه من اليهود والنصارى ويجب أن يكون هؤلاء القوم وإن أماتهم الله، ثم أحياهم، غير مضطرين إلى معرفة الله عند موتهم كما يضطر الواحد منا اليوم إلى معرفته عند الموت، بدليل أن الله أعادهم إلى التكليف. والمعرفة في دار التكليف لا تكون

ضرورية، بل تكون مكتسبة ولكن موتهم إنما كان في حكم النوم، فأذهب الله عنهم الروح من غير مشاهدة منهم وأحوال الآخرة. وليس في الإحياء بعد الإماتة ما يوجب الاضطرار إلى المعرفة لأن العلم بأن الإحياء بعد الإماتة لا يقدر عليه غير الله، طريقه الدليل، وليس الإحياء بعد الإماتة إلاَّ قريباً من الانتباه بعد النوم، والإفاقة بعد الإغماء، في أن ذلك لا يوجب علم الاضطرار.

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾البقرة: ٥٧

المعنى: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ ﴾ أي: جعلنا لكم الغمام ظلة وسترة تلقيكم حر الشمس في التيه، عن جماعة المفسرين: ﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ ﴾ فيه وجوه أحدها: إنه المن الذي يعرفه الناس، يسقط على الشجر، عن ابن عباس. وثانيها: إنه شيء كالصمغ كان يقع على الأشجار، وطعمه كالشهد والعسل، عن مجاهد. وثالثها: إنه الخبز المرقق عن وهب. ورابعها: إنه جميع النعم التي أتتهم مما منّ الله به عليهم، مما لا تعب فيه، ولا نصب. وروي عن النبي (ص)، أنه قال: «الكمْأة من المن وماؤها شفاء للعين».

﴿وَالسَّلْوَى﴾ قيل: هو السُماني. وقيل: هو طائر أبيض يشبه السماني، عن ابن عباس. وقوله: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ معناه: قلنا لهم كلوا من الشيء اللذيذ. وقيل: المباح الحلال. وقبل: المباح الذي يستلذ أكله الذي رزقناكم أي: أعطيناكم، وجعلناه رزقاً لكم. وقوله: ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ أي: فكفروا هذه النعمة، وما نقصونا بكفرانهم أنعُمَنا. ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

أي: يسمون. وقيل: معناه وما ضرّونا، ولكن كانوا أنفسهم يضرّون. وهذا يدل على أن الله تعالى لا ينفعه طاعة من أطاعه، ولا يضره معصية من عصاه، وإنما تعود منفعة الطاعة إلى المطيع، ومضرة المعصية إلى العاصي.

وكان سبب إنزال المن والسلوى عليهم أنه لما ابتلاهم الله بالتيه ﴿ قَالُوا۟

يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾المائدة: ٢٤ حين أمرهم بالمسير إلى بيت المقدس وحرب العمالقة بقوله: ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ﴾المائدة: ٢١ فوقعوا في التيه، فصاروا كلما ساروا تاهوا في قدر خمسة فراسخ، أو ستة فكلما أصبحوا ساروا غادين فأمسوا، فإذا هم في مكانهم الذي ارتحلوا منه، كذلك، حتى تمت المدة، وبقوا فيها أربعين سنة. وفي التيه توفى موسى وهارون، ثم خرج يوشع بن نون. وقيل: كان الله تعالى يرد الجانب الذي انتهوا إليه من الأرض إلى الجانب الذي ساروا منه، فكانوا يضلون عن الطريق، لأنهم كانوا خلقاً عظيماً، فلا يجوز أن يضلوا كلهم عن الطريق في هذه المدة المديدة، في هذا المقدار من الأرض.

ولما حصلوا في التيه، ندموا على ما فعلوا، فألطف الله لهم بالغمام لما شكوا حرّ الشمس، وأنزل عليهم المنّ والسلوى، فكان يسقط عليهم المن من وقت طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، فكانوا يأخذون منها ما يكفيهم ليومهم. وقال الصادق (ع): ((كان ينزل المن على بني إسرائيل من بعد الفجر إلى طلوع الشمس، فمن نام في ذلك الوقت لم ينزل نصيبه، فلذلك يكره النوم في هذا الوقت إلى بعد طلوع الشمس)).

قال ابن جرير: وكان الرجل منهم إذا أخذ من المن والسلوى زيادة على طعام يوم واحد، فسد إلاَّ يوم الجمعة، فإنهم إذا أخذوا طعام يومين لم يفسد، وكانوا يأخذون منها ما يكفيهم ليوم الجمعة والسبت، لأنه كان لا يأتيهم يوم السبت. وكانوا يخبزونه مثل القرصة، ويوجد له طعم كالشهد المعجون بالسمن. وكان الله تعالى يبعث لهم السحاب بالنهار، فيدفع عنهم حر الشمس. وكان ينزل عليهم في الليل من السماء عمود من نور يضيء لهم مكان السراج، وإذا ولد فيهم مولود يكون عليه ثوب يطول بطوله كالجلد.

﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا

﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ البقرة ٥٨

المعنى: أجمع المفسرون على أن المراد بالقرية ههنا بيت المقدس، ويؤيده قوله في موضع آخر: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ﴾ المائدة: ٢١ . وقال ابن زيد: إنها أريحا قرية قرب بيت المقدس، وكان فيها بقايا من قوم عاد، وهم العمالقة، ورأسهم عوج بن عنق، يقول: اذكروا ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ﴾ أي: موسعاً عليكم، مستمتعين بما شئتم من طعام القرية، بعد المن والسلوى. وقد قيل: إن هذه إباحة لهم منه لغنائمها، وتملك أموالها إتماماً للنعمة عليهم.

﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ﴾ يعني: الباب الذي أُمروا بدخوله. وقيل: هو باب حطة من بيت المقدس، وهو الباب الثامن، عن مجاهد. وقيل: باب القبة التي كان يصلي إليها موسى وبنو إسرائيل. وقال قوم: هو باب القرية التي أُمروا بدخولها. قال أبو علي الجبائي: والآية على قول من يزعم أنه باب القبة، أدل منها على قول من يزعم أنه باب القرية، لأنهم لم يدخلوا القرية في حياة موسى، وآخر الآية يدل على أنهم كانوا يدخلون هذا الباب على غير ما أُمروا به في أيام موسى، لأنه قال: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ﴾ والعطف بالفاء التي هي للتعقيب من غير تراخ، يدل على أن هذا التبديل منهم كان في أثر الأمر، فدل ذلك على أنه كان في حياة موسى. وقوله: ﴿سُجَّدًا﴾ قيل: معناه ركعاً، وهو شدة الانحناء عن ابن عباس. وقال غيره: إن معناه ادخلوا خاضعين متواضعين، يدل عليه قول الأعشى:

يُرَاوحُ مِنْ صلوَاتِ المَليكِ ... طوْراً سُجُوداً وطوْراً جُؤارا

وقيل: معناه ادخلوا الباب، فإذا دخلتموه فاسجدوا لله سبحانه شكراً، عن وهب. وقوله: ﴿حِطَّةٌ﴾ قال الحسن، وقتادة، وأكثر أهل العلم: معناه حط عنا ذنوبنا، وهو أمر بالاستغفار. وقال ابن عباس: أُمروا أن يقولوا هذا الأمر حق. وقال عكرمة: أُمروا أن يقولوا لا إله إِلاَّ الله لأنها تحط الذنوب، وكل واحد من

هذه الأقوال مما يحط الذنوب، فيصح أن يترجم عنه بحطة. وروي عن الباقر (ع) أنه قال: نحن باب حطتكم. وقوله: ﴿ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡ ﴾ أي: نصفح ونعفو عن ذنوبكم. ﴿ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ أي: وسنزيدهم على ما يستحقونه من الثواب تفضلاً كقوله تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾. وقيل: إن المراد به أن يزيدهم الإحسان، على ما سلف من الإحسان، بإنزال المن والسلوى، وتظليل الغمام، وغير ذلك.

﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴾البقرة ٥٩

المعنى: ثم بين سبحانه أنهم قد عصوا فيما أُمروا به، فقال: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ ﴾ أي: فخالف الذين عصوا، والذين فعلوا ما لم يكن لهم أن يفعلوه، وغيّروا ما أُمروا به، فقالوا غير ذلك. واختلف في ذلك الغير، فقيل: إنهم قالوا بالسريانية هاطا سماقاتا. وقال بعضهم: حطا سماقاتا، ومعناه: حنطة حمراء فيها شعيرة. وكان قصدهم في ذلك الاستهزاء، ومخالفة الأمر. وقيل: إنهم قالوا حنطة، تجاهلاً واستهزاءً، وكانوا قد أُمروا أن يدخلوا الباب سجداً، وطؤطئ لهم الباب ليدخلوه كذلك، فدخلوه زاحفين على أستاههم، فخالفوا في الدخول أيضاً.

وقوله: ﴿ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ أي: فعلوا ما لم يكن لهم فعله من تبديلهم ما أمر الله به بالقول والفعل. ﴿ رِجۡزٗا ﴾ أي: عذاباً ﴿ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾عن ابن عباس، وقتادة، والحسن. ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴾ أي: بكونهم فاسقين، أو بفسقهم كقوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ ﴾البقرة ٦١ أي بعصيانهم. وقال ابن زيد: أهلكوا بالطاعون، فمات منهم في ساعة واحدة أربعة وعشرون ألفاً من كبرائهم وشيوخهم وبقي الأبناء فانتقل عنهم العلم والعبادة. كأنه يشير إلى أنهم عوقبوا بإخراج الأفاضل من بينهم.

﴿ وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾ البقرة ٦٠

المعنى: ثم عدّ سبحانه وتعالى على بني إسرائيل نعمة أخرى، إضافة إلى نعمه تعالى الأولى، فقال: ﴿ وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ ﴾ أي: سأل موسى قومه ماء، والسين سين الطلب، وترك ذكر المسؤول ذلك، إذ كان فيما ذكر من الكلام دلالة على معنى ما ترك، وكذلك قوله: ﴿ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ ﴾ فانفجرت لأن معناه: فضربه فانفجرت، فترك ذكر الخبر عن ضرب موسى الحجر، لأن فيما أبقاه من الكلام دلالة على ما ألقاه، وهذا كما يقال: أمرت فلاناً بالتجارة فاكتسب مالاً أي: فاتجر واكتسب مالاً.

وقوم موسى هم بنو إسرائيل، وإنما استسقى لهم ربه الماء في الحال التي تاهوا في التيه، فشكوا إليه الظمأ، فأوحى الله تعالى إليه أن اضرب بعصاك، وهي عصاه المعروفة وكانت من آسى الجنة، دفعها إليه شعيب، وكان آدم حملها من الجنة معه إلى الأرض. وكان طولها عشرة أذرع على طول موسى، ولها شعبتان تتقدان في الظلمة نوراً، وبها ضرب البحر فانفلق، وهي التي صارت ثعباناً.

وأما الحجر فاختلف فيه، فقيل: كان يقرع لهم حجراً من عرض الحجارة، فينفجر عيوناً لكل سبط عيناً، وكانوا اثني عشر سبطاً، ثم يسير كل عين في جدول إلى السبط الذي أمر بسقيهم، عن وهَب بن مُنبه. وقيل: كان حجراً بعينه خفيفاً، إذا رحلوا حمل في مخلاة، فإذا نزلوا ضربه موسى بعصاه فانفجر منه الماء، عن ابن عباس، وهذا أولى لدلالة الألف واللام للعهد عليه. وقيل: كانت حجرة فيها اثنتا عشرة حفرة، وكان الحجر من الكذّان، وكان يخرج من كل حفرة عين ماء عذب فرات فيأخذونه، فإذا فرغوا أراد موسى حمله، ضربه

بعصاه فيذهب الماء.

وكان يسقى كل يوم ستمائة ألف، عن أبي مسروق. وروي أنه كان حجراً مربعاً. وروي أنه كان مثل شكل الرأس. وكان موسى إذا ضربه بعصاه انفجرت منه في كل ناحية ثلاث عيون، لكل سبط عين. وكانوا لا يرتحلون مرحلة إلا وجدوا ذلك الحجر بالمكان الذي كان به منهم في المنزل الأول. وقوله: ﴿فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾ لا ينافي قوله في سورة الأعراف: فانبجست، لأن الإنبجاس هو الانفجار، إلاَّ أنه أقل. وقيل: إنه لا يمتنع أن يكون أول ما يضرب عليه العصا كان ينبجس، ثم يكثر حتى يصير انفجاراً. وقيل: كان ينبجس عند الحاجة، وينفجر عند الحاجة. وقيل: كان ينبجس عند الحمل، وينفجر عند الوضع. وقوله: ﴿قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ﴾ أي: قد علم كل سبط وفريق منهم، موضع شربهم. وقوله: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ البقرة ٦٠

أي: وقلنا لهم كلوا واشربوا. وهذا كلام مبتدأ. وقوله: ﴿مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ﴾ أي: كلوا من النعم التي منّ الله بها عليكم من المنّ والسلوى، وغير ذلك، واشربوا من الماء، فهذا كله من رزق الله الذي يأتيكم بلا مشقة، ولا مؤنة، ولا تبعة، فإن الرزق ما للمرزوق أن ينتفع به، وليس لأحد منعه منه. وقوله: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ﴾ البقرة ٦٠ أي: لا تسعوا في الأرض فساداً. وإنما قال لا تعثوا ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ البقرة ٦٠ وإن كان العثي لا يكون إلاَّ فساداً، لأنه يجوز أن يكون فعل ظاهره الفساد، وباطنه المصلحة، فبين أن فعلهم هو العيث الذي هو الفساد ظاهراً وباطناً.

ومتى سئل فقيل: كيف يجتمع ذاك الماء الكثير في ذلك الحجر الصغير؟ وهل يمكن ذلك؟ فالجواب: إنّ ذلك من آيات الله الباهرة، والأعاجيب الظاهرة، الدالة على أنها من فعل الله تعالى، المنشيء للأشياء، القادر على ما يشاء، الذي تذل له الصعاب، ويتسبب له الأسباب. فلا بدع من كمال قدرته، وجلال عزته، أن يبدع خلق المياه الكثيرة ابتداء معجزة لموسى، ونعمة عليه، وعلى قومه ومن استبعد ذلك من الملاحدة الذين ما قدروا الله حق قدره، ولم يعرفوه حقيقة

معرفته، فالكلام عليهم إنما يكون في وجود الصانع، وإثبات صفاته، واتساع مقدوراته، ولا معنى للتشاغل بالكلام معهم في الفرع، مع خلافهم في الأصل.

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾البقرة٦١

المعنى: لما عدد سبحانه في ما قبل، ما أسداه إليهم من النعم والإحسان، ذكر ما قابلوا به تلك النعم من الكفران، وسوء الإختيار لنفوسهم بالعصيان، فقال: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ ﴾ أي: قال أسلافكم من بني إسرائيل: ﴿ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ ﴾ أي: لن نطيق حبس أنفسنا على طعام واحد، وإنما قال ﴿ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ ﴾ وإن كان طعامهم المن والسلوى، وهما شيئان، لأنه أراد به أن طعامهم في كل يوم واحد أي: يأكلون في اليوم ما كانوا يأكلونه في الأمس، كما يقال إن طعام فلان في كل يوم واحد، وإن كان يأكل ألواناً إذا حبس نفسه على ألوان من الطعام لا يعدوها إلى غيرها. وقيل: إنه كان ينزل عليهم المن وحده، فملّوه فقالوا ذلك، فأنزل عليهم السلوى من بعد ذلك وقوله: ﴿ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾أي: فاسأل ربك وادعه لأجلنا. ﴿ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ ﴾ أي: مما تنبته الأرض من البقل، والقثاء، ومما سماه الله مع ذلك.

وكان سبب مسألتهم ذلك ما رواه قتادة قال: كان القوم في البرية قد ظلّل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى، فملوا ذلك، وذكروا عيشاً كان لهم بمصر فسألوا موسى فقال الله: ﴿ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ وتقديره فدعا موسى فاستجبنا له، فقلنا لهم اهبطوا مصراً. وقيل: إنهم قالوا لا نصبر

على الغنى بأن يكون جميعنا أغنياء، فلا يقدر بعضنا على الاستعانة ببعض، فلذلك قالوا يخرج لنا مما تنبت الأرض، ليحتاجوا فيه إلى أعوان، فيكون الفقير عوناً للغني.

وقوله: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ معناه: قال لهم موسى وقيل: بل قال الله لهم: أتتركون ما اختار الله لكم، وتؤثرون ما هو أدون وأردى على ذلك. وقيل: إنه أراد أتستبدلون ما تتبذلون في زراعته وصناعته بما أعطاه الله إياكم عفواً من المن والسلوى. وقيل: المراد تختارون الذي هو أقرب أي أقل قيمة، على الذي هو أكثر قيمة وألذ. واختلف في سؤالهم هذا: هل كان معصية؟ فقيل: لم يكن معصية، لأن الأول كان مباحاً، فسألوا مباحاً آخر. وقيل: بل كان معصية، لأنهم لم يرضوا بما اختاره الله لهم، ولذلك ذمهم على ذلك، وهو أوجه.

وقوله: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا﴾البقرة٦١ اختلف فيه، فقال الحسن والربيع: أراد مصر فرعون الذي خرجوا منه. وقال أبو مسلم: أراد بيت المقدس، وروي ذلك عن ابن زيد وقال قتادة والسُدّي ومجاهد: أراد مصراً من الأمصار، يعني أن ما تسألونه إنما يكون في الأمصار، ولا يكون في المفاوز أي: إذا نزلتم مدينة ذات طول وعرض ﴿فَإِنَّ لَكُم﴾ فيها ﴿مَّا سَأَلْتُمْ﴾ من نبات الأرض. وقد تم الكلام ههنا.

ثم استأنف حكم الذين اعتدوا في السبت، ومن قتل الأنبياء، فقال: ﴿سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾البقرة ٦١

أي: ألزموا الذلة إلزاماً لا يبرح عنهم، كما يضرب المسمار على الشيء فيلزمه. وقيل: المراد بالذلة الجزية، لقوله ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾التوبة: ٢٩ . عن الحسن وقتادة. وقيل هو الكُسْتيج وزي اليهود عن عطا. وقوله: ﴿وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ يعني زي الفقر. فترى المثري منهم يتبائس مخافة أن يضاعف عليه الجزية. وقال قوم: هذه الآية تدل على فضل الغنى، لأنهم ذَمَّهم على الفقر، وليس ذلك بالوجه، لأن المراد به فقر القلب، لأنه قد

يكون في اليهود مياسير، ولا يوجد يهودي غَني النفس. وقال النبي (ص): ((الغنى غنى النفس)) وقال ابن زيد: أبدل الله اليهود بالعز ذلاً، وبالنعمة بؤساً، وبالرضا عنهم غضباً، جزاء لهم بما كفروا بآياته، وقتلوا أنبياءه ورسله اعتداء وظلماً. ﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي: رجعوا منصرفين متحملين غضب الله، قد وجب عليهم من الله الغضب، وحل بهم منه السخط. وقال قوم: الغضب هو ما حلَّ بهم في الدنيا من البلاء والنقمة بدلاً من الرخاء والنعمة. وقال آخرون: هو ما ينالهم في الآخرة من العقاب على معاصيهم.

ثم أشار إلى ما تقدم ذكره فقال: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾البقرة ٦١ أي: ذلك الغضب، وضرب الذلة والمسكنكة، حل بهم لأجل ﴿ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ لأي يجحدون حجج الله وبيناته. وقيل: أراد بآيات الله الإنجيل والقرآن، ولذلك قال فباؤوا بغضب على غضب. الأول: لكفرهم بعيسى والإنجيل، والثاني: لكفرهم بمحمد والقرآن. وقيل: آيات الله صفة محمد (ص) وقوله: ﴿ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾البقرة ٦١ أي: بغير جزم كزكريا ويحيى وغيرهما. وقوله﴿ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾لا يدل على أنه قد يصح أن يقتل النبيون بحق، لأن هذا خرج مخرج الصفة لقتلهم، وأنه لا يكون إلا ظلماً بغير حق كقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾ المؤمنون: ١١٧ . ومعناه أن ذلك لا يمكن أن يكون عليه برهان. وكقول الشاعر: (على لاحبٍ لا يُهتدى بمناره)، ومعناه: ليس هناك منار يهتدى به، وفي مثاله كثرة. وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾البقرة ٦١ ذلك إشارة إلى ما تقدم أيضاً بعصيانهم في قتل الأنبياء، وعدوهم السبت. وقيل: بنقضهم العهد واعتدائهم في قتل الأنبياء، والمراد إني فعلت بهم ما فعلت من ذلك بعصيانهم أمري، وتجاوزهم حدي إلى ما نهيتهم عنه.

سؤال: إن قيل: كيف يجوز التخلية بين الكفار، وقتل الأنبياء؟ فالجواب: إنما جاز ذلك لتناول أنبياء الله سبحانه من رفع المنازل والدرجات، ما لا ينالونه بغير القتل، وليس ذلك بخذلان لهم، كما أن التخلية بين المؤمنين والأولياء

والمطيعين، وبين قاتليهم، ليست بخذلان لهم. وقال الحسن: إنّ الله تعالى لم يأمر نبياً بالقتال فقتل فيه، وإنما قتل من الأنبياء من قتل في غير قتال. والصحيح أن النبي إن كان لم يؤد الشرع الذي أُمر بتأديته، لم يجز أن يمكّن الله سبحانه من قتله، لأنه لو مكّن من ذلك لأدى إلى أن يكون المكلفون غير مزاحي العلة في التكليف، وفيما لهم من الألطاف والمصالح. فأما إذا أدى الشرع، فحينئذ يجوز أن يخلي الله بينه وبين قاتليه، ولم يجب عليه المنع من قتله. وروى أبو هريرة عن النبي (ص) أنه قال: ((اختلفت بنو إسرائيل بعد موسى بخمسمائة سنة حتى كثر فيهم أولاد السبايا، واختلفوا بعد عيسى بمائتي سنة)).

*القرطبي:

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾البقرة ٤٩

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ «إذ» في موضع نصب عطف على ﴿ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ﴾البقرة: ٤٧

وهذا وما بعده تذكير ببعض النعم التي كانت له عليهم، أي اذكروا نعمتي بإنجائكم من عدوكم وجعل الأنبياء فيكم والخطاب للموجودين والمراد من سلف من الآباء كما قال: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴾الحاقة: ١١ أي حملنا آباءكم، وقيل إنما قال نجيناكم لأن نجاة الآباء كانت سبباً لنجاة الأبناء وأبناء الأبناء ومعنى نجيناكم: ألقيناكم على فجوة من الأرض وهي ماء ارتفع منها، هذا هو الأصل، ثم سمي كل فائز ناجياً. فالناجي من خرج من ضيق إلى سعة.

قوله تعالى ﴿ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾: أي قومه وأتباعه وأهل دينه وكذلك آل الرسول (ص) من هو على دينه وملته في عصره وسائر الأعصار؛ سواء كان نسيباً أو لم يكن. وفي صحيح مسلم قال: سمعت رسول الله جهاراً غير سرّ يقول: ألا

إن آل أبي ليسوا لي بأولياء إنما وليّي الله وصالح المؤمنين واختلف النجاة هل يضاف الآل إلى الولدان أولاً، فقال الكسائي: إنما يقال آل فلان وآل فلانة، ولا يقال في البلدان هو من آل حمص ولا من آل المدينة. قال الأخفش إنما يقال في الرئيس الأعظم نحو آل محمد، وآل فرعون لأنه رئيسهم في الضلالة.

واختلفوا أيضاً في أصل آل فقال النحاس أصله: أهل، ثم أبدل من الهاء ألفاً، فإن صغته رددته إلى أصله فقلت أُهيل. وقال المهدوي أصله أَوْل.

قوله تعالى: ﴿ فِرْعَوْنَ ﴾ قيل إنه اسم ذلك الملك بعينه وقيل إنه اسم كل ملك من ملوك العمالقة وإن اسم فرعون موسى قابوس في قول أهل الكتاب والعتاة الفراعنة، وقد تفرعَن، وهو ذو فرعنةٍ أي دهاء ومكر.

قوله تعالى: ﴿ يَسُومُونَكُمْ ﴾: قيل معناه يذيقونكم وليلزمونكم إيّاه وقال أبو عبيدة يولُّونكم وقيل يديمون تعذيبكم والسّوم: الدوام؛ ومنه سائمة الغنم لمداومتها الرعي. قال الأخفش: وهو في موضع رفع على الابتداء، وإن شئت كان في موضع نصب على الحال، أي سائمين لكم.

قوله تعالى: ﴿ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ ﴾ مفعول ثانٍ ليسومونكم ومعناه أشد العذاب ويجوز أن يكون بمعنى سوم العذاب فروي أن فرعون جعل بني إسرائيل خدماً وخولاً وصنّفهم في أعماله؛ فصنف يبنون وصنف يحرثون ويزرعون، وصنف يتخدّمون وكان قومه جنداً ملوكاً.

قوله تعالى: ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ ﴾ يذبحون بغير واو على البدل من قوله يسومونكم والمعنى يعذبونكم بالذبح وبغير الذبح. ويذبحون أبناءكم جنس آخر من العذاب وتقرأ بالتجديد على المبالغة فكان فرعون يذبح الأطفال ويبقي البنات.

قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾: إشارة إلى جملة الأمر، إذ هو خبر فهو كمفرد حاضر؛ أي وفي فعلهم ذلك بكم بلاء، أي امتحان واختبار. وبلاء نعمة ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًا ﴾الأنفال: ١٧ قال أبو هيثم: البلاء يكون

سيئاً ويكون حسناً، وأصله المحنة؛ والله عزّ وجلّ يبلو عبده بالصنع الجميل ليمتحن شكره ويبلوه التي يكرهها ليمتحن صبره؛ فقبل للحسن بلاء، وللسيئ بلاء، حكاه الهروي. وقال قوم الإشارة بذلكم إلى الذبح ونحوه والبلاء هنا في الشر والمعنى. وفي الذبح مكروه وامتحان ويقال في الخبر: أبلاه الله وبلاه.

﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾البقرة: ٥٠

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ ﴾: «إذ» في موضع نصب: وفرقنا، فلقنا، فكان كل فرق كالطود العظيم أي الجبل العظيم. وأصل الفرق الفصل؛ ومنه فرق الشعر؛ ومنه الفرقان؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل أي يفصل؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ فَٱلْفَـٰرِقَـٰتِ فَرْقًا ﴾ المرسلات: ٤ يعني الملائكة تنزل بالفرق بين الحق والباطل، ومنه ﴿ يَوْمَ ٱلْفُرْقَـانِ ﴾ الأنفال: ٤١ يعني يوم بدر، كان فيه فرق بين الحق والباطل، ومنه ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ ﴾الإسراء: ١٠٦ أي فصّلناه وأحكمناه وقرأ الزهري فرّقنا بتشديد الراء أي جعلناه فرقاً. ومعنى «بكم» أي لكم، فالباء بمعنى اللام، وقيل الباء في مكانها؛ أي فرقنا البحر بدخولكم إياه أي صاروا بين الماءين، فصار الفرق بهم وهذا أولى يبينه ﴿ فَٱنفَلَقَ ﴾ الشعراء: ٦٣ .

ـ قوله تعالى: ﴿ ٱلْبَحْرَ ﴾: البحر معروف، سمي بذلك لاتساعه ويقال: فرسٌ بحر إذا كان واسع الجري، أي كثيرة ومن ذلك قول رسول الله (ص) في فرس أبي طلحة: (وإن وجدناه لبحراً) والبحر: الماء المالح. ويقال أبحر الماء، ملح. والبحر: البلدة. يقال: هذه بحرتنا أي بلدتنا. قاله الأموي والبحرَ: السّلال، يصيب الإنسان.

ـ قوله تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ ﴾: أي أخرجناكم منه؛ يقال نجوت من كذا نجاء ممدود، ونجاة، مقصور والصدق: منجاة.

ـ قوله تعالى: ﴿ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾البقرة: ٥٠: يقال: غرق في الماء غرقاً فهو عرِق وغارق أيضاً؛ وأغرقه غيره وغرّقه، ولجام مغرَّق بالفضة أي محلّى والتغريق: القتل.

ـ قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾: جملة في موضع الحال، ومعناه بأبصاركم فيقال: إن آل فرعون طفوا على الماء فنظروا إليهم يغرقون، وإلى أنفسهم ينجون، ففي هذا أعظم المنّة. وقد قيل إنهم أخرجوا لهم حتى رأوهم. فهذه منّة بعد منّة. وقيل: المعنى وأنتم تنظرون أي ببصائركم للاعتبار؛ لأنهم كانوا في شغل عن الوقوف والنظر بالأبصار. وهذا القول أشبه بأحوال بني إسرائيل لتوالي عدم الاعتبار فيما صدر من بني إسرائيل بعد خروجهم من البحر، وذلك أن الله تعالى لما أنجاهم وغرّق عدوهم قالوا: يا موسى إن قلوبنا لا تطمئن، إن فرعون قد غرق! حتى أمر الله البحر فلفظه فنظروا إليه. وقد آذى اليهود النبي موسى كثيراً وذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ﴾الأحزاب: ٦٩. فعندما مات أخوه هارون قالوا له: أنت قتلت هارون وحسدته، فنزلت الملائكة بسريره وهارون ميّت عليه وسيأتي في المائدة. ثم بدّلوا التوراة وافتروا على الله وكتبوا بأيديهم واشتروا به عرَضاً الحياة الدنيا ثم صار أمرهم إلى أن قتلوا أنبياءهم ورسلهم. فهذه معاملتهم مع ربهم وسيرتهم في دينهم وسوء أخلاقهم.

﴿وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ البقرة: ٥١

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ﴾: قرأ أبو عمرو وعدنا بغير ألف، واختاره أبو عبيد ورجّحه وأنكر واعدنا لأن المواعدة إنما تكون من البشر، والله عز وجل هو المنفرد بالوعد والوعيد لقوله ﴿وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾ إبراهيم: ٢٢ وقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾النور: ٥٥ قال مكي: ظاهر اللفظ فيه وعد من الله تعالى لموسى، وليس فيه وعد من موسى، فوجب حمله على الواحد، لظاهر النص أن الفعل مضاف إلى الله تعالى وحده، وهي قراءة الحسن وأبي رجاء وأبي جعفر وشيبة وعيسى بن عمر. قال أبو حاتم: قراءة العامة عندنا، وعدنا بغير ألف، لأن المواعدة أكثر ما تكون بين المخلوقين

والمتكافئين، كل واحد منهما يعد صاحبه وقال الجوهري الميعاد: المواعدة فيكون لفظ المواعدة من الله خاصة لموسى كمعنى واعدنا فتكون القراءتان بمعنى واحد. ولاختيار واعدنا بالألف لأنه بمعنى وعدنا في أحد المعنيين، ولأنه لا بد لموسى من وعد أو قبول يقوم مقام الوعد فتصح المفاعلة. قال النحّاس: وقراءة واعدنا أجود وأحسن وهي قراءة مجاهد والأعرج وابن كثير ونافع والأعمش وحمزة والكسائي، وأما قوله عز وجل: وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات، ليست من هذا في شيء لأن واعدنا موسى إنما هو من باب الموافاة، وليس هذا من الوعد والوعيد في شيء بل هو كقولك موعدك يوم الجمعة وموعدك موضع كذا.

قوله تعالى: ﴿ مُوسَىٰ ﴾، موسى اسم أعجمي لا ينصرف للعجمة والتعريف والقبط يقولون للماء مو، وللشجر: سى. قال السّدي: لما خافت عليه أمه جعلته في التابوت وألقته في اليم كما أوحى الله إليها بين أشجار عند بيت فرعون، فخرج جواري آسيا وامرأة فرعون ليغتسلن، فوجدنه، فسمي باسم المكان. وموسى هو موسى ابن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق بن إبراهيم (ع).

قوله تعالى: ﴿ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾: أربعين نصب على المفعول الثاني، وفي الكلام حذف، قال الأخفش التقدير: وإذ واعدنا موسى تمام أربعين ليلة، كما قال ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ يوسف: ٨٢ .

والأربعون كلها داخلة في الميعاد والأربعون في قول أكثر المفسرين ذو القعدة وعشر من ذي الحجة وكان ذلك بعد أن جاوز البحر وسأله قومه أن يأتيهم بكتاب من عند الله، فخرج إلى الطور في سبعين من خيار بين إسرائيل، وصعدوا الجبل، وواعدهم إلى تمام أربعين ليلة، فعدوا عشرين يوماً وعشرين ليلة. فإن قيل لما خصّ الليالي بالذكر دون الأيام؟ قيل له: لأن الليل اسبق من اليوم فهي قبله في الرتبة، ولذلك وقع بها التاريخ، فالليالي أول

الشهور والأيام تبع لها.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾البقرة ٥١: أي اتخذتموه إلهاً من بعد موسى وأصل اتخذتم ائتخذتم، من الأخذ، ووزنه افتعلتم، سهّلت الهمزة الثانية لامتناع همزتين فجاء إتيخذتكم، فاضطرت الياء في التصريف جاءت ألفاً في ياتخذ، وواواً في موتخذ. ومذهب أبي علي الفارسي أن اتخذتم من تخذلا من أخذ.

قوله تعالى: ﴿ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾البقرة: ٥١

جملة في موضع الحال وقد تقدم معي الظلم والحمد لله.

﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾البقرة: ٥٢

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم ﴾

العفو: عفو الله جل وعز عن خلقه، وقد يكون بعد العقوبة وقبلها، بخلاف الغفران فإنه لا يكون معه عقوبة البتة. وكل من استحق عقوبة فتركت له فقد عفي عنه.

فالعفو بعد الذنب، أي محونا ذنوبكم وتجاوزنا عنكم. مأخوذ من قولك: عفت الريح الأثر، أي وأذهبته، وعفا الشيء كثر فهو من الأضداد.

قوله تعالى: ﴿ مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ أي من بعد عبادتكم العجل وسمي العجل عجلاً لاستعجالهم عبادته والله أعلم. والعجل ولد البقرة والعجول مثله، والجمع عجاجيل، والأنثى عجلة.

قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ كي تشكروا عفو الله عنكم وقد تقدم معنى لعل وأما الشكر فهو في اللغة: الظهور، من قوله: دابة شكور إذا ظهر عليها من السمن فوق ما تعطي من العلف وحقيقته: الثناء على الإنسان بمعروف يوليكه. والشكران خلاف الكفران. وتشكّرت له مثل شكرت له وروى الترمذي وأبو داوود عن أبي هريرة عن النبي قال: لا يشكر الله من لا يشكر

الناس.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

﴿ وَإِذْ ﴾: اسم للوقت الماضي، وإذا اسم للوقت المستقبل، وآتينا: أعطينا والكتاب: التوراة بإجماع من المتأولين واختلف في الفرقان؛ فقال الفراء وقطرب: المعنى آتينا موسى التوراة ومحمد عليه السلام الفرقان. قال النحاس هذا خطأ في الإعراب والمعنى: أما الإعراب فإن المعطوف على الشيء مثله، وعلى هذا القول يكون المعطوف على الشيء خلافه وأما المعنى فقد قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ الأنبياء: ٤٨ . قال أبو اسحق: الفرقان هو الكتاب أعيد ذكره باسمين تأكيداً وحكي عن الفرّاء. وقال ابن زيد: الفرقان انفراق البحر له حتى صار فرقاً فعبروا وقيل الفرقان: الفرح من الكرب لأنهم كانوا مستعبدين مع القبط ومنه قوله تعالى: ﴿ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ الأنفال: ٢٩ أي فرجاً ومخرجاً. وقيل إنه الحجة والبيان وقيل الواو صلة والمعنى آتينا موسى الكتاب والفرقان كقولهم فلان حسن وطويل.

قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ لكي تهتدوا من الضلالة وقد تقدّم.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ﴾: القوم: الجماعة الرجال دون النساء. قال الله تعالى: ﴿ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾ الحجرات: ١١ . ثم قال: ﴿ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ ﴾ الحجرات: ١١. وقال تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ ﴾ الأعراف: ٨٠

أراد الرجال دون النساء وقد يقع القوم على الرجال والنساء. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ ﴾ نوح: ١، وكذا كل بني نبي مرسل إلى النساء والرجال جميعاً.

قوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾: منادى مضاف وحذفت الياء في يا قوم لأنه موضع حذف والكسرة تدل عليها؛ وهي بمنزلة التنوين فحذفتها كما تحذف التنوين من المفرد. ويجوز في غير القرآن إثباتها ساكنة، فنقول: يا قومي، لأنها اسم وهي في موضع خفض وواحد القوم امرؤ على غير اللفظ ونقول: قوم وأقوام، وأقاوم جمع الجمع والمراد هنا بالقوم: عبدة العجل، وكانت مخاطبته (ع) لهم بأمر من الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم﴾: استغنى بالجمع القليل عن الكثير، والكثير: نفوس وقد يوضع الجمع الكثير موضع جمع القلّة، والقليل موضع الكثرة، قال الله تعالى ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ﴾ [البقرة/٢٢٢]. وقال: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ﴾ [الزخرف/٧١] ويقال لكل من فعل فعلاً يعود عليه ضرره: إما أسأت إلى نفسك وأصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه ثم قال تعالى ﴿بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ﴾: لما قال لهم فتوبوا إلى بارئكم، قالوا كيف؟ قال فاقتلوا أنفسكم قال أرباب الخواطر: ذللوها بالطاعات وكفوها عن الشهوات والصحيح أنه قتل على الحقيقة هنا. والقتل: إماتة الحركة. وقتلت الخمر أي كسرت شدتها بالماء وكانت توبة بني إسرائيل: القتل وأجمعوا على أنه لم يؤمر كل واحد من عبدة العجل بأن يقتل نفسه بيده قال الزهري: قاموا صفين وقتل بعضهم بعضاً حتى قيل لهم كفوا فكان ذلك شهادة للمقتول وتوبة للحي. وقيل وقف الذين عبدوا العجل صفاً، ودخل الذين لم يعبده عليهم بالسلاح فقتلوهم وإنما عوقب الذين لم يعبدوا العجل بقتل أنفسهم على القول الأول؛ لأنهم لم يغيروا المنكر حين عبدوه؛ وإنما اعتزلوا وكان الواجب عليهم أن يقاتلوا من عبده وهذه سنة الله في عباده إذا فشا المنكر ولم يغير عوقب الجميع. فلما استحر فيهم القتل وبلغ سبعين ألفاً عفا الله عنهم. قال ابن عباس وعلي رضي الله عنهما وإنما رفع الله عنهم القتل لأنهم

بذلوا المجهود في قتل أنفسهم فما أنعم الله على هذه الأمة نعمة بعد الإسلام هي أفضل من التوبة.

قوله تعالى: ﴿ بَارِئِكُمْ ﴾: البارئ: الخالق؛ وبينهما فرق، وذلك أن البارئ هو المبدع المحدث والخالق هو المقدِّر الناقل من حال إلى حال والبرية: الخلق، وهي فعيلة بمعنى مفعول غير أنها لا تهمز وقال أبو عمرو بارئْكم بسكون الهمزة واختلف النحاة في هذا فمنهم من يسكِّن الضمة والكسرة في الوصل، وذلك في الشِّعر وقال أبو العباس لا يجوز التسكين مع توالي الحركات في حرف الإعراب في كلام ولا شِعر فمن أنكر التسكين في حرف الإعراب فحجته أن ذلك لا يجوز من حيث كان علماً للإعراب وقد أجاز ذلك النحويون القدماء الأئمة وأصل برأ من تبرّأ الشيء من الشيء وهو انفصاله منه فالخلق قد فصلوا من العدم إلى الوجود؛ ومنه برأت من المرض برءاً ومنه المبارأة للمرة وقد بارأ شريكه وامرأته.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾: في الكلام حذف، تقديره ففعلتم فتاب عليكم أي فتجاوز عنكم، أي على الباقين منكم، ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة/ ٣٧]. تقدم معناه. والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

البقرة: ٥٥ - ٦٥

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ ﴾ معطوف: ﴿ يَٰمُوسَىٰ ﴾: نداء مفرد لَن نُّؤْمِنَ لَكَ أي نصدقك. ﴿ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾: قيل هم السبعون الذين اختارهم موسى؛ وذلك أنهم لما أسمعهم كلام الله تعالى: قالوا له بعد ذلك لن نؤمن لك. والإيمان بالأنبياء واجب بعد ظهور معجزاتهم فأرسل الله عليهم ناراً من السماء فأحرقهم، ثم دعا موسى ربه فأحياهم، كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم

مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ ﴾.

قوله تعالى: ﴿جَهۡرَةً﴾: مصدر في موضع الحال ومعناه علانية وقيل عياناً. قاله ابن عباس. وأصل الجهر: الظهور؛ ومنه الجهر بالقراءة إنما هو إظهارها. والمجاهرة بالمعاصي: المظاهرة بها. ورأيت الأمر جهارة وجهراً أي غير مستتر بشيء وفي الجهر وجهان أحدهما أنه صفة لخطابهم لموسى أنهم جهروا به وأعلنوا؛ فيكون في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: وإذا قلتم جهرة يا موسى. الثاني أنه صفة لما سألوه من رؤية الله تعالى أن يروه جهرة وعياناً فيكون الكلام على نسقه لا تقديم فيه ولا تأخير فأكد بالجهر فرقاً بين رؤية العيان ورؤية المنام.

قوله تعالى: ﴿ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ ﴾: تقدم في أول السورة معنى الصاعقة. ﴿وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴾ جملة في موضع الحال أي تنظرون إلى حالكم وما نزل بكم من الموت وآثار الصاعقة.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ ﴾: أي أحييناكم. قال قتادة: ماتوا وذهبت أرواحهم ثم ردوا لاستيفاء آجالهم. قال النحاس وهذا احتجاج على من لم يؤمن بالبعث من قريش، واحتجاج على أهل الكتاب إذ خبروا بهذا والمعنى ﴿ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ فافعل بكم من البعث بعد الموت وقيل ماتوا موت همود يعتبر به الغير، ثم أرسلوا وأصل البعث: الإرسال. وقيل بل أصله إثارة الشيء من محلّه؛ يقال: بعثت الناقة أي أثرتها، حركتها. وقال بعضهم ثم بعثناكم من بعد موتكمك علمناكم من بعد جهلكم. قلت والأول أصح؛ لأن الأصل الحقيقة وكان موت عقوبة.

قوله تعالى: ﴿ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾البقرة: ٥٧

قوله تعالى: ﴿ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ ﴾ أي جعلناه عليكم كالظلة والغمام

جمع غمامة، كسحابة وسحاب قال الفرّاء: ويجوز غمائم وهي السحاب؛ لأنها تغم السماء أي تسترها، وكل مغطّى فهو مغموم؛ ومنه المغموم على عقله وغمّ الهلال إذا غطاه الغيم وقال السّدي: الغمام: السحاب الأبيض وفعل هذا بهم ليقيهم حرّ الشمس نهاراً. وينجلي في آخره ل يستضيئوا بالقمر ليلاً، وذكر المفسرون أن هذا جرى في التيه بين مصر والشام لما امتنعوا من دخول الجبارين وقتالهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾: اختلف في المنّ ما هو وتعيينه على أقوال، قيل: عسل وقيل شراب حلو، وقيل خبز الرقاق، وقيل صمغة حلوة، وقيل الترنجبين، وقيل المن مصدر يعم جميع ما منّ الله به على عباده من غير تعب ولا زرع. ومنه قول رسول الله (ص) في حديث سعيد بن زيد بن عمرو: الكمأة من المنّ الذي أنزل الله تبارك وتعالى على بني إسرائيل وماؤها شفاء للعين.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّلْوَىٰ﴾: اختلف في السلوى فقيل هو السماني بعينه، قاله الضحّاك. قال ابن عطية: السلوى طير بإجماع المفسّرين، قلت: مدعاة بالإجماع لا يصح وقد قال المؤرّخ أحد علماء اللغة والتفسير إنه العسل، وقال الجوهري، والسلوى: العسل. واختلف في السلوى هل هو جمع أو مفرد فقال الأخفش جمع لا واحد له من لفظه؛ مثل الخير والشرّ، وهو يشبه أن يكون واحده سلوى مثل جماعته والسلوى عطف على المنّ ولم يظهر فيه الإعراب لأنه مقصور.

قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾: كلوا، فيه حذف تقديره: وقلنا كلوا؛ فحذف اختصاراً لدلالة الظاهر عليه. والطيبات هنا قد جمعت الحلال واللذيذ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾: يقدّر قبله فعصوا ولم يقابلوا النعم بالشكر.
قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ لمقابلتهم النعم بالمعاصي.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ البقرة ٥٨

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾: حذفت الألف من قلنا لسكونها وسكون الدال بعدها، والألف التي يُبتدأ بها قبل الدال ألف وصل؛ لأنه من يدخل.

﴿هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾: أي المدينة؛ سميت بذلك لأنها تقرّت أي اجتمعت؛ ومنه قريت الماء في الحوض؛ أي جمعته واسم ذلك الماء قِرن بكسر القاف مقصور. وكذلك ما قري به الصيف؛ قاله الجوهري، والمقراط للحوض. والقري لمسيل الماء. والقَرى للظهر والمقاري: الجفان الكبار وواحد المقاري: مقراط، وكله بمعنى الجمع غير مهمور. والقِرية بكسر القاف: لغة اليمن واختلف في تعيينها؛ فقال الجمهور: هي بيت المقدس وقيل أريحا، من بيت المقدس وهذه نعمة أخرى، وهي أنه أباح لهم دخول البلدة وأزال عنهم التيه.

﴿كُلُوا۟﴾ إباحة. ﴿رَغَدًا﴾: كثيراً واسعاً؛ وهو نعت لمصدر محذوف؛ أي أكلاً رغداً. ويجوز أن يكون في موضع الحال، على ما تقدم. وكانت أرضاً مباركة عظيمة الغلّة فلذلك قال رغداً.

﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ : الباب يجمع أبواباً؛ وقد قالوا أبوبة للازدواج وتبوّبت بواباً اتخذته وأبواب مبوّبة؛ كما قالوا أصناف مصنفة. وهذا شيء من بابتك، أي يصلح لك، والباب الذي أمروا بدخوله هو باب في بيت المقدس يعرف اليوم بباب حطة عن مجاهد وغيره. وقيل باب القبة التي كان يصلي إليها موسى وبنو إسرائيل. وسجّداً قال ابن عباس: منحنين ركوعاً. وقيل متواضعين خضوعاً لا على هيئة متعيّنة.

﴿وَقُولُوا۟﴾ عطف على ادخلوا وحطة بالرفع قراءة الجمهور؛ على إضمار مبتدأ، أي مسألتنا حطة، أو يكون حكاية قال الأخفش وقرأت حطة بالنصب على معنى احطط عنا ذنوبنا حطة وعن ابن عباس أنه قيل لهم قولوا لا إله إلا الله وفي حديث آخر عنه قيل لهم قولوا مغفرة تفسير للنصب، أي

قولوا شيئاً يحط ذنوبكم، كما يقال: قل خيراً والأئمة من القراء على الرفع وهو أولى في اللغة وقال الحسن وعِكرمة: حطة بمعنى حط ذنوبنا امروا أن يقولوا لا إله إلا الله ليحط بها ذنوبهم وقال ابن جبير: معناه الاستغفار وأبان بن تغلب التوبة. وقال ابن فارس في المجمل: حطة كلمة أمر بها بنو إسرائيل لو قالوها لحطت أوزارهم وقاله الجوهري أيضاً في الصحاح فعصوا وتمردوا واستهزأوا فعاقبهم الله بالرجز وهو العذاب استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن تبديل الأقوال المنصوص عليها في الشريعة لا يخلو أن يقع التعبد بلفظها أو بمعناها، فإن كان التعبد وقع بلفظها فلا يجوز تبديلها، لذم الله تعالى من بدّل ما أمره بقوله وإن وقع بمعناها حاز تبديلها بما يؤدي إلى ذلك المعنى، ولا يجوز تبديلها بما يخرج عنها وكذا الخلاف في التقديم والتاخير والزيادة والنقصان؛ فإن منهم من يعتد بالمعنى ولا يعتد باللفظ، ومنهم من يشدد في ذلك ولا يفارق اللفظ ولكن أكثر العلماء على خلافه والقول بالجواز هو الصحيح إن شاء الله تعالى، وذلك أن المعلوم من سيرة الصحابة أنهم كانوا يرددون الوقائع المتحدة بألفاظ مختلفة، وما ذاك إلا أنهم كانوا يصرفون عنايتهم للمعاني ولا يلتزموا التكرار على الأحاديث ولا كتبها.

﴿ نَغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡ ﴾: قراءة نافع بالياء مع ضمّها وابن عامر بالتاء مع ضمها، وهي قراءة مجاهد وقرأ الباقون بالنون مع نصبها، وهي أبينها، لأن قبلها ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ ﴾ فجرى نغفر على الإخبار عن الله تعالى؛ والتقدير: وقلنا ادخلوا الباب سجّداً نغفر. وخطاياكم أتباعاً للسواد وأنه على بابه. ووجه القراءة بالتاء أنه أنّث لتأنيث لفظ الخطايا؛ لأنها جمع خطيئة على التكسير.

﴿ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾: أي في إحسان من لم يعبد العجل ويقال يغفر خطايا من رفع المن والسلوى للغد، وسنزيد في إحسان من لم يرفع للغد ويقال يغفر خطايا من هو عاص، وسيزيد في إحسان من هو محسن، أي نزيدهم إحساناً على الإحسان المتقدم عندهم وهو اسم فاعل من أحسَن

والمحسن: من صحح عقد توحيده، وأحسن سياسة نفسه، وأقبل على أداء فرائضه، وكفى المسلمين شرّه.

﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴾البقرة ٥٩

﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا ﴾: الذين في موضع رفع؛ أي فبدّل الظالمون منهم قولاً غير الذي قيل لهم وذلك أنه قيل لهم، قولوا حطّة فقالوا حنطة، فزادوا حرفاً في الكلام فلقوا من البلاء ما لقوا؛ تعريفاً أن الزيادة في الدين والابتداع في الشريعة عظيمة الخطر شديدة الضرر.

قوله تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ ﴾: تقدم معنى بدّل وأبدَل، وقرأ ﴿عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا﴾ [القلم/٣٢] على الوجهين. قال الجوهري وأبدلت الشيء بغيره، وبدّله الله من الخوف أمناً وتبديل الشيء أيضاً تغييره وإلى لم يأتِ ببدل واستبدل الشيء بغيره، وتبدّله به إذا أخذه مكانه والمبادلة: التبادل. والأبدال: قوم من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم، إذا مات واحد منهم أبدل الله مكانهم بآخر قال ابن دريد: الواحد بديل وبدل الشيء: غيره. يقال بدَلٌ وبدِل، لغتان؛ مثل شبَه وشِبه ومَثل ومِثل، ونَكل ونكِل. والبدل وجع يكون في اليدين والرجلين وقد بَدِل بالكسر يَبدل بدْلاً.

قوله تعالى: ﴿ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾: كرّر لفظ ظلموا ولم يضمره تعظيماً للأمر والتكرير يكون على ضربين؛ أحدهما استعماله بعد تمام الكلام؛ كما في هذه الآية. وقوله: ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ﴾: البقرة ٧٩. ثم قال بعدُ، ﴿ فَوَيۡلٞ لَّهُمۡ مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ﴾: البقرة ٧٩ ولم يقل مما كتبوا وكرّر الويل تغليظاً لفعلهم، قوله تعالى: رجزاً: قراءة الجماعة رجزاً بكسر الراء، وابن محيص بضم الراء. والرجز: العذاب بالزاي، وبالسين: النتن والقذر. ومنه قوله تعالى: ﴿ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ ﴾التوبة: ١٢٥ أي نتناً إلى نتنهم،

قال الكسائي وقال الفراء: الرجز هو الرجس. قال أبو عبيد: كما يقال السدغ والزدغ، وكذا رجس ورجز بمعنى وذكر بعضهم أن الرجز بالضم: اسم صنم كانوا يعبدونه؛ وقرأ بذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ المدثر: ٥ . والرّجَز بفتح الراء والجيم نوع من الشِّعر؛ وأنكر الخليل أن يكون شِعراً.

قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾: أي بفسقهم، والفسق: الخروج، وقد تقدم وقرأ ابن وثاب والنخعي، يفسقون بكسر السنين.

فائدة: إذا كان عقاب تغير كلمة هي عبارة عن التوبة أوجبت كل ذلك من العذاب؛ فما ظنك بتغيير ما هو من صفات المعبود! هذا والقول أنقص من العمل، فكيف بالتبديل والتغيير في الفعل.

فائدة: قال قتادة عن زرارة بن أوفى: لقيت عدة من أصحاب النبي (ص) فاختلفوا عليّ في اللفظ واجتمعوا في المعنى وكان النخعي والحسن والشعبي يأتون بالحديث على المعاني وقال الحسن: إذا أصبتَ المعنى أجزاءكَ وقال وكيع: إن لم يكن المعنى واسعاً فقد هلك الناس.

واتفق العلماء على جواز نقل الشيء للعجم بلسانهم وترجمته لهم؛ وذلك هو النقل بالمعنى وقد فعل الله ذلك في كتابه فيما قصَّ من أنباء ما قد سلف، فقصّ قصصاً ذكر بعضها في ألفاظ مختلفة والمعنى واحد، ونقلها من ألسنتهم إلى لسان عربي وهو مخالف لها في التقديم والتأخير، والحذف والإلغاء، والزيادة والنقصان وإذا جاز إبدال العربية بالعُجمية فيجوز التبديل بالعربية بطريقٍ أولى.

﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۖ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ البقرة ٦٠

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾: كسرت الذال لالتقاء الساكنين

والسنين، سين السؤال مثل، استعلم واستخبر واستنصرو، ونحو ذلك؛ أي طلب وسأل السَّقي لقومه والعرب تقول: سقيته وأسقيته، لغتان بمعنى وقيل سقيته من سقي الشَّفة، وأسقيته: دللته على الماء والاستسقاء إنما يكون عند عدم الماء وحبس القطر، وإذا كان كذلك، فالحكم حينئذ، إظهار العبودية والفقر والمسكنة والذلّة مع التوبة النصوح وقد استسقى نبينا محمد فخرج إلى المصلّى متواضعاً، متذللاً، متخشعاً، متوسلاً، متضرعاً، وحسبك به.

قوله تعالى: ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ﴾: العصا: معروف، وهو اسم مقصور مؤنث وألفه منقلبة عن واو والجمع عُصي وعِصي، وهو مفعول، وإنما كسرت العين لما بعدها من الكسرة وقولهم «ألقى عصاه» أي أقام وترك الأسفار. قال الفرّاء أول لحن سمع بالعراق: هذه عصاتي لأنه في التنزيل﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا ﴾طه: ١٧ - ١٨ .

وقد يعبّر بالعصا عن الاجتماع والإفتراق، ومنه يقال في الخوارج: قد شقوا عصا المسلمين، أي اجتماعهم وائتلافهم والحجر معروف، وقياس جمعه في أدنى العدو أحجار، وفي الكثير حجار وحجارة. قال تعالى: ﴿ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ ﴾ البقرة: ٧٤ ﴿ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً ﴾الإسراء: ٥٠ ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً ﴾الحجر: ٧٤ .

قوله تعالى:﴿ فَٱنفَجَرَتْ ﴾، في الكلام حذف تقديره فضرب فانفجرت وقد كان تعالى قادراً على تفجير الماء وفلق الحجر من غير ضرب؛ لكن أراد أن يربط المسببات بالأسباب حكمة منه للعباد في وصولهم إلى المراد؛ وليرتب على ذلك ثوابهم وعقابهم في المعاد؛ والانفجار.

الانشقاق، ومنه انشق الفجر. وانفجر الماء انفجاراً: انفتح. والفجرة: موضع تفجر الماء. والانبجاس أضيف من الانفجار؛ لأنه يكون انبجاساً ثم يصير انفجاراً. وقيل: انبجس وتبجّس وتفجّر وتفتق بمعنى واحد. قوله تعالى: ﴿ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾: اثنتا في وضع رفع بانفجرت وعلامة الرفع فيها الألف وأعربت دون نظائرها لأن التثنية معربة أبداً لصحة معناها. عيناً: نصب على البيان وقرأ

مجاهد وطلحة وعيسى عشِرة بكسر الشين؛ وهي لغة بني تميم، وهذا من لغتهم نادر؛ لأن سبيلهم التخفيف ولغة أهل الحجاز عشرة وسبيلهم التثقيل والعين من الأسماء المشتركة؛ يقال عين الماء، وعين الإنسان، وعين الركبة، وعين الشمس، والعين سحابة تقبل من ناحية القِبلة والعين مطر يدوم خمساً أو ستاً لا يقلع وبلد قليل العين أي قليل الناس والعين من الماء مشبهة من العين من الحيوان لخروج الماء منها كخروج الدمع من عين الحيوان ولما استسقى موسى عليه السلام لقومه أُمرَ أن يضرب عند استسقائه بعصاه حجراً وقد أوتي نبينا محمد (ص) أعظم من هذه المعجزة إذ نبع الماء وانفجر من يده وبين أصابعه ومعجزته عليه السلام لم تكن لنبي قبله حيث يخرج الماء من بين لحم ودم.

قوله تعالى: ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾: يعني أن لكل سبطٍ منهم عيناً قد عرفها لا يشرب من غيرها، والمشرب موضع الشرب وقيل المشروب والأسباط في بني إسرائيل كالقبائلا في العرب وهم ذرية الإثني عشر أولاد يعقوب عليه السلام؛ وكان لكل سبط عين من تلك العيون لا يتعداها. وبلغنا أنه كان من كل سبط خمسون ألف مقاتل سوى خيلهم ودوابهم.

قوله تعالى: ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ ﴾: في الكلام حذف وتقديره قلنا لهم كلوا المنّ والسلوى، واشربوا الماء المتفجّر من الحجر المنفصل. ﴿ وَلَا تَعْثَوْا۟ ﴾البقرة ٦٠: أي لا تفسدوا. والعيث: شدة الفساد. يقال: عثيَ يعثي عثيّاً، وعثا، يعثوا عثوّاً. ويقال عثّ يعث في المضاعث أي أفسد.

قوله تعالى: ﴿ مُفْسِدِينَ ﴾: حال؛ وتكرر المعنى تأكيداً لاختلاف اللفظ وفي هذه الكلمات إباحة النعم وتعدادها، والتقدم في المعاصي والنهي عنها.

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى

هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴾البقرة٦١

﴿ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ ﴾: كان هذا القول منهم في التيه حين ملّوا المن والسلوى وتذكروا عيشهم الأول في مصر. قال الحسن: كانوا نتانى أهل كرّات وأبصال وأعداس فنزعوا إلى عكرهم عكر السوء، واشتاقت طباعهم إلى ما جرت عليه عادتهم فقالوا: لن نصبر على طعام واحد، وكنوا عن المن والسلوى بطعام واحد وهما اثنان لأنهم كانوا يأكلون أحدهما بالآخر؛ فلذلك قالوا: طعام واحد. وقيل: لتكرارهما في كل يوم غذاء؛ كما تقول لمن يداوم على الصوم والصلاة والقراءة: هو على أمر واحد، لملازمته لذلك. وقيل: المعنى لن نصبر على الغني فيكون جميعنا أغنياء فلا يقدر بعضنا على الاستعانة ببعض؛ لاستغناء كل واحد منا بنفسه وكذلك كانوا، فهم أول من اتخذ العبيد والخدم.

قوله تعالى: ﴿ عَلَىٰ طَعَامٖ ﴾ الطعام يطلق على ما يطعم ويشرب، قال الله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ ﴾ البقرة: ٢٤٩. وقال: ﴿ لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ ﴾المائدة: ٩٣ . أي ما شربوه من الخمر، على ما يأتي بيانه.

قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ ﴾ البقرة: ٢٤٩ أي من لم يذقه وقال ﴿ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ ﴾الأحزاب: ٥٣ أي أكلتم. وقال رسول الله (ص) في زمزم: (إنها طعام طُعم وشفاء سقم). واستطعمني فلان الحديث إذا أراد أن تحدثه.

قوله تعالى: ﴿ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ ﴾: لغة بني عامر (فادع) بكسر العين لالتقاء الساكنين، يجرون المعتل مجرى الصحيح ولا يراعون المحذوف و(يخرج) مجزوم على معنى سلْه وقل له: أخرِج، يُخرج وقيل هو على معنى الدعاء على تقدير حذف اللام، وضعّفه الزجّاج. (ومِن) في قوله: (ممّا) زائدة في قول الأخفش، وغير زائدة في قول سيبويه؛ لأن الكلام موجب

قال النحاس: وإنما دعا الأخفش إلى هذا لأنه لم يجد مفعولاً لـ(يُخرج) فأراد أن يجعل (ما) مفعولاً. والأولى أن يكون المفعول محذوفاً دلّ عليه سائر الكلام؛

التقدير: يخرج لنا مما تنبت الأرض مأكولاً. فـ(مِن) الأولى على هذا للتبعيض، والثانية للتخصيص. و(منه بقْلها) بدل من (ما) بإعادة الحرف. (وقثائها) عطف عليه، وكذا ما بعده فاعلمه والبُقل معروف وهو كل نبات ليس له ساق. والشجر ما له ساق. والقثاء أيضاً معروف.

قوله تعالى: ﴿ وَفُومِهَا ﴾ اختلف في الفوم. فقيل هو الثوم، لأنه المشاكل للبصل. رواه جويبر عن الضحّاك. والثاء تبدل من الفاء، كما قالوا: مغافير ومغاثير. وجدثٌ وجدف، للقبر وقيل الفوم: الحنطة، روي عن ابن عباس أيضاً وأكثر المفسرين، واختاره النحاس، قال: وهو أولى ومن قال به أعلى واسانيده صحاح. وقال بعضهم: القوم: الحمّص، لغة شامية، وبائعة فاميّ، مغيّر عن فومي، لأنهم قد يغيرون في النسب، كما قالوا: سهلي ودهري. ويقال: فوّموا لنا؛ أي اختبزوا. قال الفراء: هي لغة قديمة. وقال عطاء وقتادة: الفوم كل حب يختبز.

قوله تعالى: ﴿ وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا ﴾: العدس معروف. والعدسة: بثرة تخرج بالإنسان، وربما قتلت وعدَس: زجر للنعال. ويؤثر عن النبي (ص) من حديث عليّ أنه قال: «عليكم بالعدس فإنه مقدس وإنه يرق القلب ويكثر الدمعة فإنه بارك فيه سبعون نبياً آخرهم عيسى ابن مريم». قال الحليمي: والعدس والزيت طعام الصالحين؛ ولو لم يكن له فضيلة إلا أنه ضيافة إبراهيم عليه السلام في مدينته لا تخلو منه لكان فيه كفاية. وهو مما يخفّف البدن فيخِف للعبادة، ولا تثور منه الشهوات كما تثور من اللحم.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾: الاستبدال: وضع الشيء موضع الآخر، ومنه البدل، وقد تقدم. ولا (أدنى) مأخوذ ـ عند الزجاج ـ من الدنو أي القرب في القيمة؛ من قوله: ثوب مقارب؛ أي قليل

الثمن. وقال علي بن سليمان: هو مهموز من الدنيء البيّن الدناءة بمعنى الأخس، إلا أنه خفف همزته. وقيل هو مأخوذ من الدون أي الأحط؛ فأصله أدوَن، أفعَل، قلِب فجاء أفلع، وحولت الواو ألفاً لتطرفها. وقرئ في الشواذ (أدنى). ومعنى الآية: أتستبدلون البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل الذي هو أدنى بالمن والسلوى الذي هو خير.

قوله تعالى: ﴿ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا ﴾البقرة٦١ تقدم معنى الهبوط وهذا أمر معناه التعجيز؛ كقوله تعالى: ﴿ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴾الإسراء: ٥٠ لأنهم كانوا في التيه وهذا عقوبة لهم. وقيل: إنهم أعطوا ما طلبوه. و(مصراً) بالتنوين منكراً قراءة الجمهور، وهو خط المصحف. قال مجاهد وغيره: فمن صرفها أراد مصراً من الأمصار غير معين. وروى عكرمة عن ابن عباس في قوله: ﴿ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا ﴾ البقرة٦١ قال: مصراً من هذه الأمصار. وقالت طائفة ممن صرفها أيضاً: أراد مِصر فرعون بعينها. استدل الأولون بما اقتضاه ظاهر القرآن من أمرهم دخول القرية، وبما تظاهرت به الرواية أنهم سكنوا الشام بعد التيه، واستدل الآخرون بما في القرآن من أن الله أورث بني إسرائيل ديار آل فرعون وآثارهم، وأجازوا صرفها.

قوله تعالى ﴿ فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡ ﴾: ما نصب بإن. وقرأ ابن وثّاب والنخعي (سِألتم) بكسر السين، يقال سألت وسلت بغير همز. وهو من ذوات الواو، بدليل قولهم: يتساولان. ومعنى ﴿ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ ﴾ أي ألزموهما وقضي عليهم بهما، مأخوذ من ضرب القباب. وضربت الحاكم على اليد؛ أي حمل وألزم. والذلة: الذل والصغار. والمسكنة: الفقر. فلا يوجد يهودي وإن كان غنياً خالياً من زي الفقر وخضوعه ومهانته. وقيل الذلة فرض الجزية؛ عن الحسن وقتادة. والمسكنة الخضوع، وهي مأخوذة من السكون، أي قلّل الفقر حركته، قاله الزجاج. وقال أبو عبيدة: الذلة الصّغار. والمسكنة مصدر المسكين.

وقوله تعالى: ﴿ وَبَآءُو ﴾: أي انقلبوا ورجعوا؛ اي لزمهم ذلك. ومنه قوله عليه السلام في دعائه ومناجاته: «أبوء بنعمتك عليّ» أي أقربها وألزمها نفسي.

وأصله في اللغة الرجوع، يقال باء بكذان أي رجع به، وباء إلى المباءة ـ وهي المنزل ـ أي رجع. والبواء: الرجوع بالقوَد. وهم في هذا الأمر بَواء؛ أي سواء ، يرجعون فيه إلى معنى واحد.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾: تعليل؟ ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ أي يكذبون ﴿بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي بكتابه ومعجزات أنبيائه؛ كعيسى ويحيى وزكريا ومحمد عليهم السلام. ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾البقرة ٦١ معطوف على ﴿يَكْفُرُونَ﴾. وروي عن الحسن ﴿وَيَقْتُلُونَ﴾ وعنه أيضاً كالجماعة.

قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ تعظيم للشنعة والذنب الذي أتوه. فإن قيل: هذا دليل على أنه قد يصح أن يقتلوا بالحق، ومعلوم أن الأنبياء معصومون من أن يصدر منهم ما يقتلون به. قيل له: ليس كذلك، وإنما خرج هذا مخرج الصفة لقتلهم أنه ظلم وليس بحق، فكان هذا تعظيماً للشنعة عليهم، ومعلوم أنه لا يقتل نبي بحق، ولكن يقتل على الحق، فصرّح قوله: ﴿بِغَيْرِ الحَقِّ﴾ عن شنعة الذنب ووضوحه، ولم يأتِ نبي قط بشيء يوجب قتله.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾البقرة ٦١. ﴿ذَٰلِكَ﴾ رد على الأول وتأكيد للإشارة إليه. والباء في ﴿بِمَا﴾ باء السبب. قال الأخفش: أي بعصيانهم والعصيان: خلاف الطاعة. واعتصتِ النواة إذا اشتدّت. والاعتداء: تجاوز الحد في كل شيء، وعرف في الظلم والمعاصي.

*** الشيرازي:**

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾البقرة ٤٩

في هذه الآية إشارة إلى نعمة كبيرة أخرى، منَّ بها الله سبحانه على بني إسرائيل، وهي نعمة تحريرهم من براثن الظالمين: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن

﴿ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾.

القرآن يعبّر عن العذاب الذي أنزله فرعون ببني إسرائيل بفعل ﴿ يَسُومُونَكُمْ ﴾ من «سام» التي تعني في الأصل الذهاب في ابتغاء الشيء، واستعمال هذا الفعل بصيغة المضارع يشير إلى استمرار العذاب، وإلى أن بني إسرائيل كانوا دوماً تحت التعذيب من قبل الفراعنة.

والقرآن عبّر بكلمة «البلاء» عمّا كان ينزل ببني إسرائيل من عذاب يتمثل في قتل الذكور واستخدام الإناث لخدمة آل فرعون، واستثمار طاقات بني إسرائيل لخدمة الاقباط وإشباع رغبات ونزوات المستكبرين.

والبلاء يعني الامتحان، فالحوادث والمصائب التي نزلت ببني إسرائيل كانت بمثابة الامتحان لهم. كما قد يأتي البلاء بمعنى العقاب؛ لأن بني إسرائيل سبق لهم أن كفروا بنعمة ربّهم، فكان ما أصابهم من آل عمران عقاباً على كفرانهم.

وذكر بعض المفسرين معنى ثالثاً للبلاء، وهو النعمة، وبذلك يكون البلاء العظيم يعني النعمة العظيمة، والمقصود منها نعمة النجاة من آل فرعون.

على كل حال، يوم نجاة بني إسرائيل من آل فرعون يوم تاريخي مهم، ركّز عليه القرآن في مواضع عديدة ولنا وقفات أُخرى عند هذا الحدث الكبير.

من الملفت للنظر أن القرآن يسمّي ذبح الأبناء واستحياء النساء عذاباً. ولو عرفنا أن استحياء النساء يعني استبقاءهنّ، وتركهنّ أحياء، لإتّضح لنا أن القرآن يشير إلى أن مثل هذا الاستبقاء المذل هو عذاب أيضاً مثل عذاب القتل. وهذا المعنى يشير إليه الإمام أمير المؤمنين علي(ع) اذ يقول: «فَالْمَوتُ فِي حَيَاتِكُمْ مَقْهُورينَ وَالْحَيَاةُ فِي مَوْتِكُمْ قَاهِرينَ».

عملية الإماتة كانت شاملة للذكور والإناث مع اختلاف في ممارسة هذه العملية. وفي عالمنا المعاصر يمارس طواغيت الأرض عملية الإماتة أيضاً بأساليب أُخرى، وذلك عن طريق قتل روح الرجولة في الذكور، ودفع الإناث

إلى مستنقع إشباع الشهوات.

من المفسرين من ذهب إلى أن سبب قتل أبناء بني إسرائيل واستحياء نسائهم، يعود إلى رؤيا عرضت لفرعون في منامه. ولكن السبب ليس الرؤيا وحدها ــ كما سنبيّن ذلك في تفسير الآية الرابعة من سورة القصص ــ بل أيضاً خوف الفرعونيين من اشتداد قوة بني إسرائيل وتشكيلهم خطراً على سلطة آل فرعون.

﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾البقرة: ٥٠

الآية السابقة أشارت إلى نجاة بني إسرائيل من براثن الفرعونيين، وهذه الآية توضح طريقة النجاة، ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾.

قضية غرق آل فرعون في البحر ونجاة بني إسرائيل وردت في سور عديدة مثل سورة الأعراف الآية (١٢٦). وسورة الأنفال، الآية (٥٤). وسورة الإسراء الآية (١٠٣). والشعراء الآية (٦٣ و ٦٦). والزخرف، (٥٥). والدخان، الآية (١٧) وما بعدها.

في هذه السور ذكرت كل تفاصيل الحادث، أمّا هذه الآية فاكتفت بالإشارة إلى هذه النعمة الإلهية في معرض دعوة بني إسرائيل إلى قبور الرسالة الخاتمة.

حادثة الانقاذ باختصار حدثت بعد عدم استجابة فرعون وقومه لدعوة موسى (ع) مع كل ما شاهدوه منه من معجزات. إذ ذاك أُمر أن يخرج مع بني إسرائيل في منتصف الليل من مصر، وعند وصولهم النيل، علموا أن فرعون وجيشه يلاحقونهم، فاعترى، بني إسرائيل خوف واضطراب شديد. فالبحر أمامهم والعدوّ وراءهم. وفي هذه اللحظات الحساسة، أُمر موسى أن يضرب البحر بعصاه، فانشقت فيه طرق متعدّدة عبر منها بنو إسرائيل، بينما التحم الماء حينما كان آل فرعون في وسطه، فغرقوا جميعاً ونجا بنو إسرائيل، وهم ينظرون إلى هلاك أعدائهم.

الهدف من تذكير بني إسرائيل بهذا الحدث الذي بدأ بخوف شديد وانتهى بانتصار ساحق، هو دفعهم للشكر وللسير على طريق الرّسالة الإلهية المتمثلة في دين النّبي الخاتم.

كما أنه تذكير للبشرية بالامداد الإلهي الذي يشمل كل أُمّة سائرة بجد وإخلاص على طريق الله.

﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ البقرة ٥١-٥٤

في هذه الآيات الأربع، تأكيد على مقطع آخر من تاريخ بني إسرائيل، وعلى أكبر إنحراف أُصيبوا به في تاريخهم الطويل، وهو الإنحراف عن مبدأ التوحيد، والإتجاه إلى عبادة العجل. وهذا التأكيد تذكير لهم بما لحقهم من زيغ نتيجة إغواء الغاوين، وتحذير لهم من تكرر هذه التجربة في مواجهة الدين الخاتم: ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ وهي ليالي افتراق موسى عن قومه، ﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ البقرة ٥١.

شرح هذا المقطع من تاريخ بني إسرائيل سيأتي في سورة الأعراف الآية (١٤٢) وما بعدها، وفي سورة طه الآية (٣٦) وما بعدها.

وخلاصته، إنَّ موسى(ع) بعد نجاة بني إسرائيل من قبضة الفراعنة أُمر بالذهاب إلى جبل الطور مدة ثلاثين ليلة لتسلم ألواح التوراة، ثم مُدّت هذه الليالي إلى أربعين ليلة من أجل اختبار قومه. واستغل السامريّ الدّجال هذه الفرصة، فجمع ما كان لدى بني إسرائيل من ذهب الفراعنة ومجوهراتهم، وصنع منها عجلاً له صوت خاص، ودعا بني إسرائيل لعبادته. فأتبعه أكثر بني

إسرائيل، وبقي هارون ـ أخو موسى وخليفته ـ مع أقلية من القوم على دين التوحيد، وحاول هؤلاء الموحّدون الوقوف بوجه هذا الإنحراف فلم يفلحوا، وأوشك المنحرفون أن يقضوا على حياة هارون أيضاً.

بعد أن عاد موسى من جبل الطور تألم كثيراً لما رآه من قومه، ووبّخهم بشدّة فثاب بنو إسرائيل إلى رشدهم، وأدركوا خطأهم وطلبوا التوبة، فجاءهم أمر السماء بتوبة ليس لها نظير، سنذكرها فيما يلي.

في الآيـة التالية يقول سبحانه: ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

وبعد إشارة إلى ما جاء بني إسرائيل من هداية تشريعية: ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾.

كلمتا «الكتاب» و«الفرقان» قد تشيران كلاهما إلى التوراة، وقد يكون المقصود من «الكتاب» التوراة و«الفرقان» ما قدمه موسى من معاجز بإذن الله، لأنّ الفرقان يعني في الأصل ما يفرّق بين الحق والباطل.

ثم يشير القرآن إلى طريقة التوبة المطروحة على بني إسرائيل: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾البقرة ٥٤.

و«البارئ» هو الخالق، وفي الكلمة إشارة إلى أن هذا الأمر الإلهي بالتوبة الشديدة صادر عمّن خلقكم، وعمّن هو أعرف بما يضرّكم وينفعكم.

ذنب عظيم وتوبة فريدة:

لا شك أن عبادة عجل السامري لم تكن مسألة هينة، لأن بني إسرائيل شاهدوا ما شاهدوا من آيات الله ومعجزات نبيّهم موسى(ع)، ثم نسوا ذلك دفعة، وخلال فترة قصيرة من غياب النّبي إنحرفوا تماماً عن مبدأ التوحيد وعن الدين الإلهي.

كان لابدّ من اقتلاع جذور هذه الظاهرة الخطرة، كي لا تعود إلى الظهور ثانية خاصة بعد وفاة صاحب الرّسالة.

ومن هنا كانت الأوامر الإلهية بالتوبة شديدة لم يسبق لها نظير في تاريخ الأنبياء، وتقضي هذه الأوامر أن تقترن التوبة بإعدام جماعي لعدد كبير من المذنبين، على أيديهم أنفسهم.

طريقة تنفيذ هذا الإعدام لا تقل شدة عن الإعدام نفسه، فقد صدرت الأوامر الإلهية أن يقتل المذنبون بعضهم بعضاً، وفي ذلك عذابان للمذنب: عذاب قتل الأصدقاء والمعارف على يديه، وما ينزل به ــ هو نفسه ــ من عذاب القتل.

وجاء في الأخبار أن موسى أمر في ليلة ظلماء كل الجانحين إلى عبادة العجل، أن يغتسلوا ويرتدوا الأكفان ويعملوا السيف بعضهم في البعض الآخر.

ولعلك تسأل عن السبب في قساوة هذه التوبة ولماذا لم يقبل الله تعالى منهم التوبة دون إراقة للدماء؟

الجواب: إن السبب في شدّة هذا الحكم ــ كما ذكرنا ــ يعود إلى عظمة الذنب الذي إرتكبوه بعد كل ما شاهدوه من آيات ومعاجز، وإلى أن هذا الذنب يهدّد وجود الدعوة ومستقبلها؛ لإن أُصول ومبادئ جميع الأديان السماوية يمكن إختزالها في التوحيد، فلو تزلزل هذا الأصل فإن ذلك يعني إنهيار جميع اللبنات الفوقية والمباني الحضارية للدين، فلو تساهل موسى(ع) مع ظاهرة عبادة العجل، لأمكن أن تبقى سُنّة في الأجيال القادمة، خاصة وأن بني إسرائيل كانوا على مرّ التاريخ قوماً متعنتين لجوجين.

ولابدّ إذن من عقاب صارم يبقى رادعاً للأجيال التالية عن السقوط في هاوية الشرك.

ولعل في عبارة قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ إشارة إلى هذا المعنى.

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ نَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ البقرة: ٥٥ - ٦٥

هاتان الآيتان تذكّران بني إسرائيل بنعمة إلهية أُخرى، كما توضحان في الوقت نفسه روح

اللجاج والعناد في هؤلاء القوم، وتبيان ما نزل بهم من عقاب إلهي، وما شملهم الله به من رحمة بعد ذلك العقاب.

تقول الآية الأُولى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾.

هذا الطلب قد ينم عن جهل بني إسرائيل، لأن إدراك الإنسان الجاهل لا يتعدّى حواسه. ولذلك يرمي إلى أن يرى الله بعينه.

أو قد يحكي هذا الطلب عن ظاهرة لجاج القوم وعنادهم التي يتميزون بها دوماً.

على أي حال، طلب بنو إسرائيل من نبيهم بصراحة أن يروا الله جهرة، وجعلوا ذلك شرطاً لإيمانهم.

عندئذ شاء الله سبحانه أن يرى هؤلاء ظاهرة من خلقه لا يطيقون رؤيتها، ليفهموا أن عينهم الظاهرة هذه لا تطيق رؤية كثير من مخلوقات الله، فما بالك برؤية الله سبحانة نزلت الصاعقة على الجبل وصحبها برق شديد ورعد مهيب وزلزال مروع، فتركهم، على الأرض صرعى من شدة الخوف ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾.

اغتم موسى لما حدث بشدّة، لأن هلاك سبعين نفراً من كبار بني إسرائيل، قد يوفّر الفرصة للمغامرين من أبناء القوم أن يثيروا ضجّة بوجه نبيهم. لذلك تضرّع موسى إلى الله أن يعيدهم إلى الحياة، فقبل طلبه وعادوا إلى الحياة: ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

هذا باختصار شرح الواقعة، وسيأتي تفصيلها في سورة الأعراف، الآية ١٥٥، وسورة النساء الآية ١٥٣.

هذه القصة تبين من جانب آخر ما عاناه الأنبياء من مشاكل كبرى على طريق دعوتهم. كان قومهم يطلبون منهم معاجز خاصة، وكان العناد يبلغ ببعض الأقوام حداً يطلبون فيه أن يروا الله جهرة، شرطاً لإيمانهم. وحينما يواجه هذا الطلب غير المنطقي بجواب إلهي مناسب حاسم تحدث للنبي مشكلة أُخرى. ولولا لطف الله وتثبيته لما كان بالإمكان المقاومة تجاه كل هذا العناد.

هذه الآية تشير ضمناً إلى إمكان «الرجعة»، أي الرجوع إلى هذه الحياة الدنيا بعد الموت.

لأن وقوعها في مورد يدل على إمكان الوقوع في موارد أُخرى.

ولكن عدد من مفسري أهل السنة أوّلوا «الموت» في هذه الآية إلى غير المعنى الظاهر لعدم رغبتهم في قبول «الرجعة».

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ البقرة: ٥٧

بعد أن نجا بنو إسرائيل من الفرعونيّين، تذكر الآيات ٢٣ ـ ٢٩ من سورة المائدة، أن بني إسرائيل أُمروا لأن يتجهوا إلى أرض فلسطين المقدسة، لكن هؤلاء عصوا هذا الامر، وأصروا على عدم الذهاب مادام فيها قوم جبارون (العمالقة)، وأكثر من ذلك تركوا أمر مواجهة هؤلاء الظالمين لموسى وحده قائلين له: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ المائدة: ٢٤. تألم موسى لهذا الموقف ودعا ربه ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ المائدة: ٢٥ فكتب عليهم التيه أربعين عاماً في صحراء سيناء.

مجموعة من التائهين ندمت على ما فعلته أشد الندم، وتضرعت إلى الله، فشمل الله سبحانه بني إسرائيل ثانية برحمته، وأنزل عليهم نعمه التي تشير الآية إلى بعضها: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ ﴾.

والظّل له أهمية الكبرى لمن يطوي الصحراء طيلة النهار وتحت حرارة الشمس اللاّفحة، خاصة أن مثل هذا الظّل لا يضيّق الفضاء على الإنسان ولا يمنع عنه هبوب النسيم.

يبدو أن الغمام الذي تشير إليه الآية الكريمة، ليس من النوع العابر الذي يظهر عادة في سماء الصحراء، ولا يلبث أن يتفرق ويزول، بل هو من نوع خاص تفضل به الله على بني إسرائيل ليستظلوا به بالقدر الكافي.

وإضافة إلى الظل فانّ الله سبحانه وفّر لبني إسرائيل بعد تيههم الطعام الذي كانوا في أمسّ الحاجة إليه خلال أربعين عاماً خلت من ضياعهم: ﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾.

لكن هؤلاء عادوا إلى الكفران: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ البقرة: ٥٧.

المنّ والسّلوى:

تعددت أقوال المفسرين في معنى هاتين الكلمتين، ولا حاجة إلى استعراضها جميعاً، بل نكتفي بذكر معناهما اللغوي، ثم نذكر تفسيراً واحداً لهما هو في اعتقادنا أوضح التفاسير وأقربها إلى الفهم القرآني.

«المنّ» شيء كالطلّ فيه حلاوة يسقط على الشجر أو بعبارة أُخرى هو عصارة شجر ذات طعم حلو، وقيل طعم حلو ممزوج بالحموضة.

و«السّلوى» يعني التسلّي، وقال بعض اللغويين وجمع من المفسرين إنه «طائر».

وروي عن النّبي(ص): «إن الكماة من المنّ».

وذهب البعض إلى أن «المنّ» هو جميع ما أنعم الله تعالى على بني إسرائيل ومنّ عليهم. و«السّلوى» هي جميع المواهب والملكات النفسانية التي توجب لهم التسلية والهدوء النفسي.

وهو مع مخالفته لرأي معظم المفسرين، يخالف ظاهر الآية حيث تقول: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ وفي هذا التعبير دلالة واضحة على أن المنّ والسلوى نوعان من الطعام. وهذه العبارة وردت كذلك في الآية ١٦٠ من سورة الأعراف.

وتذكر التوراة أن «المنَّ» حبٌّ يشبه بذر الكزبرة يتساقط على الأرض ليلاً، وكان بنو إسرائيل يجمعونه ويصنعون منه خبزاً ذا طعم خاص.

وثمة احتمال آخر هو أن الأمطار الغزيرة النافعة التي هطلت بفضل الله على تلك الصحراء أثرت على أشجار تلك المنطقة فأفرزت عصارة حلوة استفاد منها بنو إسرائيل.

واحتمل بعضهم أن يكون «المنّ» نوعاً من العسل الطبيعي حصل عليه بنو إسرائيل في الجبال والمرتفعات المحيطة بصحراء التيه. وهذا التّفسير يؤيد ما ورد من شروح على العهدين (التوراة والإنجيل) حيث جاء: «الأراضي المقدسة معروفة بكثرة أنواع الأوراد والأزهار، ومن هنا فإن مجاميع النحل تبني خلاياها في أخاديد الصخور وعلى أغصان الأشجار وثنايا بيوت النّاس، بحيث يستطيع أفقر النّاس أن يتناول العسل».

بشأن «السلوى» قال بعض المفسرين إنه العسل، وأجمع الباقون على أنه نوع من الطير، كان يأتي على شكل أسراب كبيرة إلى تلك الأرض، وكان بنو إسرائيل يتغذون من لحومها.

في النصوص المسيحية تأييد لهذا الرأي حيث ورد في تفسير على العهدين ما يلي: «إعلم أن السلوى تتحرك بمجموعات كبيرة من افريقيا، فتتجه إلى الشمال، وفي جزيرة كابري وحدها يصطاد من هذا الطائر ١٦ ألفاً في الفصل الواحد... هذا الطائر يجتاز طريق بحر القلزم، وخليج العقبة والسويس، ويدخل شبه جزيرة سيْناء. وبعد دخوله لا يستطيع أن يطير في إرتفاعات شاهقة لشدّة ما لاقاه من تعب وعناء في الطريق، فيطير على إرتفاع منخفض ولذلك يمكن اصطياده بسهولة... وورد ذكر ذلك في سفر الخروج وسفر الأعداء من التوراة».

يستفاد من هذا النص أن المقصود بالسلوى طير خاص سمين يشبه الحمام معروف في تلك الأرض.

شاء الله بفضله ومنّه أن يكثر هذا الطير في صحراء سيناء آنئذ لسدّ حاجة بني إسرائيل من اللحوم، ولم تكن هذه الكثرة من الطير طبيعية في تلك المنطقة.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا

غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾

البقرة ٥٨-٥٩

هنا نصل إلى مقطعٍ جديد من حياة بني إسرائيل، يرتبط بورودهم الأرض المقدسة. تقول الآية الأولى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ والقرية كل مكان يعيش فيه جمع من النّاس، ويشمل ذلك المدن الكبيرة والصغيرة، خلافاً لمعناها الرائج المعاصر. والمقصود بالقرية هنا بيت المقدس.

ثم تقول الآية: ﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ ﴾

أي: حطّ عنا خطايانا، ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

كلمة «حطّة» في اللغة، تأتي بمعنى التناثر والمراد منها في هذه الآية الشريفة، الهنا نطلب منك أن تحطّ ذنوبنا واوزارنا.

أمرهم الله سبحانه أن يردّدوا من أعماق قلوبهم عبارة الإستغفار المذكورة، ويدخلوا الباب، ويبدو أنه من أبواب بيت المقدس، وقد يكون هذا سبب تسمية أحد أبواب بيت المقدس «باب الحطة».

والآية تنتهي بعبارة ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: أن المحسنين سينالون المزيد من الأجر آضافة إلى غفران الخطايا.

والقرآن يحدثنا عن عناد مجموعة من بني إسرائيل حتى في ترتيل عبارة الإستغفار، فهؤلاء لم يرددوا العبارة بل بدلوها بعبارة أُخرى فيها معنى السخرية والإستهزاء، والقرآن يقول عن هؤلاء المعاندين: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾ وكانت نتيجة هذا العناد ما يحدثنا عنه كتاب الله حيث يقول: ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾البقرة ٥٩.

و«الرجز» أصله الإضطراب ـ كما يقول الراغب في مفرداته ـ ومنه قيل رجز البعير إذا اضطرب مشيه لضعفه.

ويقول «الطبرسي» في «مجمع البيان»: إنّ الرجز يعني العذاب عند أهل

الحجاز، ويروي عن الرّسول(ص) قوله بشأن مرض الطاعون: «إِنَّهُ رِجْزٌ عُذِّبَ بِهِ بَعضُ الاْمَمِ قَبْلَكُمْ».

ومن هنا يتضح سبب تفسير «الرجز» في بعض الروايات أنه نوع من الطاعون فشا بسرعة بين بني إسرائيل وأهلك جمعاً منهم.

قد يقال إن الطاعون لا ينزل من السماء، لكن هذا التعبير قد يشير إلى حقيقة انتشار هذا المرض عن طريق الهواء الملوّث بميكروب الطاعون الذي هبّ بأمر الله آنذاك في بيئة بني إسرائيل.

يلفت النظر أن من عوارض الطاعون اضطراباً في المشي والكلام، وهذا يتناسب مع أصل معنى «الرجز» تماماً.

ومن الملفت للنظر أيضاً أن القرآن يؤكد أن هذا العذاب نزل ﴿عَلَى الَّذِينَ ظَلَموا﴾ فقط، ولم يشمل جميع بني إسرائيل.

ثم تذكر الآية تأكيداً آخر على سبب نزول العذاب على هذه المجموعة من بني إسرائيل بعبارة: ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾.

والآية الكريمة بعد ذلك تبين بشكل غير مباشر سنة من سنن الله تعالى، هي أن الذنب حينما يتعمق في المجتمع ويصبح عادة اجتماعية، عند ذاك يقترب احتمال نزول العذاب الإلهي.

﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۖ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ البقرة ٦٠

تذكير آخر بنعمة أُخرى من نعم الله على بني إسرائيل: وهذا التذكير تشير إليه كلمة «إذ» المقصود منها ﴿وَاذكُرُوا إِذ﴾، وهذه النعمة أغدقها الله عليهم، حين كان بنو إسرائيل في أمسّ الحاجة إلى الماء وهم في وسط صحراء قاحلة، فطلب موسى (ع) من الله عزَّ وجلَّ الماء: ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ﴾، فتقبل

﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾البقرة ٦٠
﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾البقرة ٦٠

الله طلبه، وأمر نبيّه أن يضرب الحجر بعصاه: ﴿ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ بعدد قبائل بني إسرائيل.

وكل عين جرت نحو قبيلة بحيث أن كل قبيلة كانت تعرف العين التي تخصّها ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾.

كثرت الأقوال في طبيعة الحجر الذي انفجرت منه العيون، وكيفية ضربه بالعصا، والقرآن لا يزيد على ذكر ما سبق.

قال بعض المفسرين: إن هذا الحجر كان في ثنايا الجبال المطلة على الصحراء وتدل جملة «انبجست» الواردة في الآية ١٦٠ من سورة الاعراف على أن المياه جرت قليلة أولاً، ثم كثرت حتى ارتوى منها كل قبائل بني إسرائيل مع مواشيهم ودوابهم.

ظاهرة انفجار المياه من الصخور طبيعية، لكن الحادثة هنا مقرونة بالإعجاز كما هو واضح.

ثمة أقوال تذكر أن ذلك الحجر كان من نوع خاص حمله بنو إسرائيل معهم، ومتى احتاجوا إلى الماء ضربه موسى بعصاه فيجري من الماء. وليس في القرآن ما يثبت ذلك، وإن أشارت إليه بعض الروايات.

في الفصل السابع عشر من «سفر الخروج» تذكر التوراة: فقال الرب لموسى سر قدام الشعب وخذ معك من شيوخ إسرائيل وعصاك التي ضربت بها النهر خذها في يدك واذهب ـ ها أنا أقف أمامك هناك على الصخرة في حوريب فتضرب الصخر فيخرج منها ماء ليشرب الشعب ففعل موسى هكذا أمام عيون شيوخ إسرائيل».

لقد مَنّ الله على بني إسرائيل بإنزال المنّ والسلوى، وفي هذه المرّة يمنّ عليهم بالماء الذي يعزّ في تلك الصحراء القاحلة، ثم يقول سبحانه لهم: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾البقرة ٦٠ .

وفي هذه العبارة حث لهم على ترك العناد وإيذاء الأنبياء، وأن يكون هذا

أقل شكرهم لله على هذه النعم.

الفرق بين العثّي والإفساد:

نهى الله سبحانه بني إسرائيل عن الفساد بفعل ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ﴾، من العثّي وهو شدة الفساد، وتشبه في معناها «العيث»، إلاَّ أنّ العيث أكثر ما يقال في الفساد الذي يدرك حساً، والعثيّ فيما يدرك حُكماً. وبهذا يكون معنى ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ﴾ هو معنى «المفسدين» ولكنه مع تأكيد أشد.

وقد تشير عبارة النهي بأجمعها إلى حقيقة بدء الفساد من نقطة صغيرة، واتساعها واشتدادها بعد ذلك. أي: تبدأ بالفساد وتنتهي بالعثيّ الأرض، وهو شدة الفساد واتساعه.

الفرق بين الإنفجار والإنبجاس

في الآية المذكورة ورد الفعل «انفجر» ليعبّر عن تدفق الماء من الحجر، بينما ورد الفعل «انبجس» في الآية ١٦٠ من سورة الأعراف ليشير إلى نفس الحقيقة مع فارق هو أن الأوّل يفصح عن شدة تدفّق الماء، والثاني عن سيلانه بشكل هادئ.

لعل آية سورة الأعراف تتحدث عن المرحلة الأُولى من ظهور الماء، وجريانه بشكل هادىء لا يثير فزع القوم، ولا يمنعهم من السيطرة عليه، بينما تشير الآية التي نحن في صددها إلى المرحلة النهائية حيث اشتد جريان الماء.

والراغب في مفرداته يفسر الإنبجاس والإنفجار بشكل يتناسب مع ما أشرنا إليه إذ يقول: بجس الماء وانبجس: انفجر، لكن الإنبجاس أكثر ما يقال فيما يخرج من شيء ضيق. والإنفجار يستعمل فيه وفيما يخرج من شيء واسع.

﴿ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ

ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴾البقرة٦١

بعد أن شرحت الآيات السابقة نِعَم الله على بني إسرائيل، ذكرت هذه الآية صورة من عنادهم وكفرانهم بهذه النعم الكبرى.

تتحدث الآية أوّلاً عن مطالبة بني إسرائيل نبيّهم بأطمعة متنوعة بدل اطعام الواحد ﴿المَنّ وَالسَّلْوى﴾: ﴿ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾.

فخاطبهم موسى ﴿ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡ ﴾.

ويضيف القرآن: ﴿ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴾البقرة ٦١.

من المفسرين من قال إن المقصود من كلمة «مصر» في الآية الكريمة هو المفهوم العام للمدينة. وقوله سبحانه: ﴿ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡ ﴾، أي: إنكم الآن تعيشون في هذه الصحراء ضمن إطار منهج للإختبار وبناء الذات، وليس هذا مكان الأطعمة المتنوعة، إذهبوا إلى المدن حيث التنوع في المأكولات، ولكن لا يوجد فيها المنهج المذكور.

ويستدل أصحاب هذا الرأي بأن بني إسرائيل لم يطلبوا العودة إلى «مصر» موطنهم السابق ولم يعودوا إليه إطلاقاً.

ومنهم من اختار هذا التّفسير لمصر، وأضاف إليه أن المقصود من قوله تعالى: ﴿ ٱهۡبِطُواْ ﴾ هو أن بقاءكم في الصحراء واقتصاركم على الطعام الواحد

يعودان إلى ضعفكم، فكونوا أقوياء، وحاربوا الأعداء، وحرروا من سيطرتهم مدن الشام والأرض المقدسة، ليتوفر لكم ما شئتم.

وهناك رأي ثالث للمفسرين هو أن المقصود من «مصر» البلد المعروف. ويكون المعنى عندئذ: إنكم في هذه الصحراء الخالية من الأطعمة المتنوعة تملكون الإيمان والحرية والإستقلال، وإنَّ أبيتم إلاَّ أن تكون لكم أطعمة متنوعة، فارجعوا إلى مصر حيث الذل والإستعباد، لتأكلوا من فتات موائد الفراعنة. إن مشتهيات بطونكم أنستكم ما كنتم تعانون منه من ذل واستعباد، وما حصلتم اليوم عليه من حرية ورفعة وافتخار، وما تتحملونه من حرمان يسير إنما هو ثمن لحريتكم.

ويبدو أن التّفسير الأول أنسب من التاليين.

هل «المنّ» و«السلوى» خير الأطعمة؟

حين طلب بنو إسرائيل أطعمة متنوعة جاءهم التقريع بالقول: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾؟! أي: أتختارون الأدنى وتتركون الأفضل؟! ويبدو أن المقصود بالأفضل هنا هو ما لديهم من طعام متمثل بالمن والسلوى. غير أن التفضيل الذي يطرحه القرآن هنا يعود إلى الحياة بكل أبعادها، والتقريع يتجه إلى بني إسرائيل لرغبتهم في التنويع مع ما قد يكشف هذا التنويع من ذلّ وهوان.

وعلى صعيد القيمة الغذائية، فإن الأطعمة النباتية التي طلبها بنو إسرائيل لها قيمتها الغذائية طبعاً، غير أن مقدار الموارد الغذائية النافعة الموجودة في «المن» ـ وهو العسل أو مادة سكرية مقوّية ـ وكذلك في لحوم السلوى يفوق ما في الأطعمة النباتية المذكورة، كما أن المن والسلوى أسهل هضماً من الحبوب المذكورة.

ولا بأس من الإشارة إلى أن «الفوم» الذي طلبه بنو إسرائيل فُسِّر بالحنطة

مرة وبالثوم مرة أُخرى، ولكلّ من المادتين قيمتها الغذائية، ويرى بعض أن تفسير الفوم بالقمح أصحّ لاستبعاد أن يطلب القوم طعاماً خالياً من القمح.

وتفيد الآية الكريمة أن بني إسرائيل ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ لعاملين:

الأوّل ــ لكفرهم بآيات الله، وانحرافهم عن خط التوحيد.

الثاني ــ لقتلهم الأنبياء بغير حق.

ظاهرة الإنحراف عن خط التوحيد وظاهرة القسوة والفظاظة، لا زالتا مشهودتين حتى اليوم عند جمع من هؤلاء القوم، ولا زالتا سبباً لشقاوتهم وطيشهم وتعاستهم.

*** الفخر الرازي:**

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ البقرة ٤٩

اعلم أنه تعالى لما قدم ذكر نعمه على بني إسرائيل إجمالاً بين بعد ذلك أقسام تلك النعم على سبيل التفصيل ليكون أبلغ في التذكير وأعظم في الحجة، فكأنه قال: اذكروا نعمتي واذكروا إذ نجيناكم واذكروا إذ فرقنا بكم البحر وهي إنعامات، والمذكور في هذه الآية هو الإنعام الأول. وقال عيسى: الأهل أعم من الآل، يقال: أهل الكوفة وأهل البلد وأهل العلم ولا يقال: آل الكوفة وآل البلد وآل العلم، فكأنه قال: الأهل هم خاصة الشيء من جهة تغليبه عليهم، والآل خاصة الرجل من جهة قرابة أو صحبة واختلف المفسرون في المراد من «سوء العذاب» فقال محمد بن إسحق: إنه جعلهم خولاً وخدماً له وصنفهم في أعماله أصنافاً، فصنف كانوا يبنون له، وصنف كانوا يحرثون له، وصنف كانوا يزرعون له، فهم كانوا في أعماله ومن لم يكن في نوع من أعماله كان يأمر بأن يوضع عليه جزية يؤديها، وقال السدي: كان قد جعلهم في الأعمال القذرة الصعبة مثل لنس المبرز وعمل الطين ونحت الجبال، وحكى الله تعالى عن بني إسرائيل أنهم قالوا لموسى: ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾

الأعراف: ١٢٩. وقال موسى لفرعون: ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ الشعراء: ٢٢، واعلم أن كون الإنسان تحت يد الغير بحيث يتصرف فيه كما يشاء لا سيما إذا استعمله في الأعمال الشاقة الصعبة القذرة، فإن ذلك يكون من أشد أنواع العذاب، حتى أن من هذه حالته ربما تمنى الموت فبيّن الله تعالى عظيم نعمه عليهم بأن نجاهم من ذلك، ثم إنه تعالى أتبع ذلك بنعمة أخرى أعظم منها، فقال: ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ ومعناه يقتلون الذكورة من الأولاد دون الإناث. وههنا أبحاث.

البحث الأول: أن ذبح الذكور دون الإناث مضرة من وجوه، أحدها: أن ذبح الأبناء يقتضي فناء الرجال، وذلك يقتضي انقطاع النسل، لأن النساء إذا انفردن فلا تأثير لهن ألبتة في ذلك، وذلك يقضي آخر الآمر إلى هلاك الرجال والنساء، وثانيها: أن هلاك الرجال يقتضي فساد مصالح النساء في أمر المعيشة، فإن المرأة لتتمنى وقد انقطع عنها تعهد الرجال وقيامهم بأمرها الموت، لما قد يقع إليها من نكد العيش بالانفراد فصارت هذه الخصلة عظيمة في المحن، والنجاة منها في العظم تكون بحسبها، وثالثها: أن قتل الولد عقيب الحمل الطويل وتحمل الكد والرجاء القوي في الانتفاع بالمولود من أعظم العذاب، لأن قتله والحالة هذه أشد من قتل من بقي المدة الطويلة مستمتعاً به مسروراً بأحواله، فنعمة الله من التخليص لهم من ذلك بحسب شدة المحنة فيه، ورابعها: أن الأبناء أحب إلى الوالدين من البنات، ولذلك فإن أكثر الناس يستثقلون البنات ويكرهونهن وإن كثر ذكرانهم، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ﴾ النحل: ٥٨-٥٩ الآية، ولذلك نهى العرب عن الوأد بقوله: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴾ الإسراء: ٣١ وإنما كانوا يئدون الإناث دون الذكور، وخامسها: أن بقاء النسوان بدون الذكران يوجب صيرورتهن مستفرشات الأعداء وذلك نهاية الذل والهوان.

البحث الثاني: ذكر في هذه السورة ﴿ يُذَبِّحُونَ ﴾ بلا واو وفي سورة إبراهيم ذكره مع الواو، والوجه فيه أنه إذا جعل قوله: ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ مفسراً بقوله: ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ لم يحتج إلى الواو، وأما إذا جعل قوله: ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ مفسراً بسائر التكاليف الشاقة سوى الذبح وجعل الذبح شيئاً آخر سوى سوء العذاب، احتيج فيه إلى الواو،

وفي الموضعين يحتمل الوجهين.

البحث الثالث: في سبب قتل الأبناء ذكروا فيه وجوهاً. أحدها: قول ابن عباس رضي الله عنهما أنه وقع إلى فرعون وطبقته ما كان الله وعد إبراهيم أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكاً فخافوا ذلك واتفقت كلمتهم على إعداد رجال معهم الشفار يطوفون في بني إسرائيل فلا يجدون مولوداً ذكراً إلاّ ذبحوه، فلما رأوا كبارهم يموتون وصغارهم يذبحون خافوا الفناء فحينئذٍ لا يجدون من يباشر الأعمال الشاقة، فصاروا يقتلون عاماً دون عام. وثانيها: قول السدي: إن فرعون رأى ناراً أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر فأحرقت القبط وتركت بني إسرائيل فدعا فرعون الكهنة وسألهم عن ذلك؟ فقالوا: يخرج من بيت المقدس من يكون هلاك القبط على يده، وثالثها: أن المنجمين أخبروا فرعون بذلك وعيّنوا له السنة فلهذا كان يقتل أبناءهم في تلك السنة والأقرب هو الأول.

البحث الرابع: اعلم أن الفائدة في ذكر هذه النعمة من وجوه، أحدها: أن هذه الأشياء التي ذكرها الله تعالى لما كانت من أعظم ما يمتحن به الناس من جهة الملوك والظلمة صار تخليص الله إياهم من هذه المحن من أعظم النعم وذلك لأنهم عاينوا هلاك من حاول إهلاكهم وشاهدوا ذل من بالغ في إذلالهم ولا شك في أن ذلك من أعظم النعم وتعظيم النعمة يوجب الانقياد والطاعة، ويقتضي نهاية قبح المخالفة والمعاندة، فلهذا السبب ذكر الله تعالى هذه النعمة العظيمة مبالغة في إلزام الحجة عليهم وقطعاً لعذرهم. وثانيها: أنهم لما عرفوا أنهم كانوا في نهاية الذل وكان خصمهم في نهاية العز إلا أنهم كانوا محقين وكان خصمهم مبطلاً لا جرم زال ذل المحقين وبطل عز المبطلين، فكأنه تعالى قال: لا تغتروا بفقر محمد وقلة أنصاره في الحال، فإنه محق لا بد وأن ينقلب العز إلى جانبه والذل إلى جانب أعدائه، وثالثها: أن الله تعالى نبه بذلك على أن الملك بيد الله يؤتيه من يشاء، فليس للإنسان أن يغتر بعز الدنيا بل عليه السعي في طلب عزّ الآخرة. أما قوله تعالى: ﴿ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ قال القفال: أصل الكلمة من الابتلاء وهو الاختيار والامتحان قال تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ الأنبياء: ٣٥ وقال: ﴿ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ الأعراف: ١٦٨ .

والبلوى واقعة على النوعين، فيقال للنعمة بلاء وللمحنة الشديدة بلاء والأكثر أن يقال في الخير إبلاء وفي الشر بلاء وقد يدخل أحدهما على الآخر. قال زهير:

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم وأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

إذ عرفت هذا فنقول: البلاء ههنا هو المحنة إن أشير بلفظ: «ذلكم» إلى صنع فرعون والنعمة إن أشير به إلى الإنجاء وحمله على النعمة أولى لأنها هي التي صدرت من الرب تعالى، ولأن موضع الحجة على اليهود إنعام الله تعالى على أسلافهم.

﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾البقرة: ٥٠

هذا هو النعمة الثانية، وقوله: ﴿ فَرَقْنَا ﴾ أي فصلنا بين بعضه وبعض حتى صارت فيه مسالك لكم وقرىء: ﴿ فَرَّقْنَا ﴾ بالتشديد بمعنى فصلنا. يقال: فرق بين الشيئين وفرق بين الأشياء لأن المسالك كانت اثنتي عشرة على عدد الأسباط، فإن قلت: ما معنى: (بكم) ؟ قلنا: فيها وجهان، أحدهما: أنهم كانوا يسلكونه ويتفرق الماء عند سلوكهم فكأنما فرق بهم كما يفرق بين الشيئين بما توسط بينهما، الثاني: فرقناه بسببكم وبسبب إنجائكم ثم ههنا أبحاث:

البحث الأول: روي أنه تعالى لما أراد إغراق فرعون والقبط وبلغ بهم الحال في معلوم الله أنه لا يؤمن أحد منهم أمر موسى (عليه السلام) بني إسرائيل أن يستعيروا حلي القبط، وذلك لغرضين. أحدهما: ليخرجوا خلفهم لأجل المال، والثاني: أن تبقى أموالهم في أيديهم ثم نزل جبريل (عليه السلام) بالعشي وقال لموسى: أخرج قومك ليلاً، وهو المراد من قوله: ﴿ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى ﴾طه: ٧٧ وكانوا ستمائة ألف نفس لأنهم كانوا اثني عشر سبطاً كل سبط خمسون ألفاً، فلما خرج موسى (عليه السلام) ببني إسرائيل بلغ ذلك فرعون، فقال: لا تتبعوهم حتى يصيح الديك. قال الراوي: فوالله ما صاح ليلته ديك فلما أصبحوا دعا فرعون بشاة فذبحت ثم قال: لا أفرغ من تناول كبد هذه الشاة حتى يجتمع إلي ستمائة ألف من القبط، وقال قتادة: اجتمع إليه ألف ألف ومائتا ألف نفس كل واحد منهم على فرس حصان فتبعوهم نهاراً. وهو قوله تعالى: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾الشعراء: ٦٠ أي بعد طلوع الشمس. ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ الشعراء: ٦١ فقال موسى: ﴿ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ الشعراء: ٦٢ فلما سار بهم موسى وأتى البحر قال له يوشع بن نون: أين أمرك

ربك؟ فقال موسى: إلى أمامك وأشار إلى البحر فأقحم يوشع بن نون فرسه في البحر فكان يمشي في الماء حتى بلغ الغمر، فسبح الفرس وهو عليه ثم رجع وقال له: يا موسى أين أمرك ربك؟ فقال البحر، فقال: والله ما كذبت، ففعل ذلك ثلاث مرات، فأوحى الله إليه: ﴿ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ الشعراء: ٦٧، فانشق البحر اثني عشر جبلاً في كل واحد منها طريق، فقال له: ادخل فكان فيه وحل فهبت الصبا فجف البحر، وكل طريق فيه حتى صار طريقاً يابساً كما قال تعالى: ﴿ فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا ﴾طه: ٧٧، فأخذ كل سبط منهم طريقاً ودخلوا فيه فقالوا لموسى: إن بعضنا لا يرى صاحبه، فضرب موسى عصاه على البحر فصار بين الطرق منافذ وكوى فرأى بعضهم بعضاً، ثم أتبعهم فرعون، فلما بلغ شاطىء البحر رأى إبليس واقفاً فنهاه عن الدخول فهم بأن لا يدخل البحر فجاء جبريل (عليه السلام) على حجرة فتقدم فرعون وهو كان على فحل فتبعه فرس فرعون ودخل البحر، فلما دخل فرعون البحر صاح ميكائيل بهم الحقوا آخركم بأولكم، فلما دخلوا البحر بالكلية أمر الله الماء حتى نزل عليهم في ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ ﴾البقرة: ٥٠

وقيل كان ذلك اليوم يوم عاشوراء، فصام موسى (عليه السلام) ذلك اليوم شكراً لله تعالى.

البحث الثاني: اعلم أن هذه الواقعة تضمنت نعماً كثيرة في الدين والدنيا، أما نعم الدنيا في حق موسى (عليه السلام) فهي من وجوه، أحدها: أنهم لما وقعوا في ذلك المضيق الذي من ورائهم فرعون وجنوده وقدامهم البحر، فإن توقفوا أدركهم العدو وأهلكهم بأشد العذاب وإن ساروا غرقوا فلا خوف أعظم من ذلك، ثم إن الله نجاهم بفلق البحر فلا فرج أشد من ذلك. وثانيها: أن الله تعالى خصهم بهذه النعمة العظيمة والمعجزة الباهرة، وذلك سبب لظهور كرامتهم على الله تعالى. وثالثها: أنهم شاهدوا أن الله تعالى أهلك أعداءهم ومعلوم أن الخلاص من مثل هذا البلاء من أعظم النعم، فكيف إذا حصل معه ذلك الإكرام العظيم وإهلاك العدو. ورابعها: أن أورثهم أرضهم وديارهم ونعمهم وأموالهم. وخامسها: أنه تعالى لما أغرق آل فرعون فقد خلص بني إسرائيل منهم، وذلك نعمة عظيمة لأنه كان خائفاً منهم، ولو أنه تعالى خلص موسى وقومه من تلك الورطة وما أهلك فرعون وقومه لكان الخوف باقياً من حيث إنه ربما اجتمعوا واحتالوا بحيلة وقصدوا إيذاء موسى (عليه السلام) وقومه، ولكن الله

تعالى لما أغرقهم فقد حسم مادة الخوف بالكلية. وسادسها: أنه وقع ذلك الإغراق بمحضر من بني إسرائيل وهو المراد من قوله تعالى: ﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ وأما نعم الدين في حق موسى (عليه السلام) فمن وجوه، أحدها: أن قوم موسى لما شاهدوا تلك المعجزة الباهرة زالت عن قلوبهم الشكوك والشبهات، فإن دلالة مثل هذا المعجز على وجود الصانع الحكيم وعلى صدق موسى (عليه السلام) تقرب من العلم الضروري، فكأنه تعالى رفع عنهم تحمل النظر الدقيق والاستدلال الشاق. وثانيها: أنهم لما عاينوا ذلك صار داعياً لهم إلى الثبات على تصديق موسى والانقياد له وصار ذلك داعياً لقوم فرعون إلى ترك تكذيب موسى (عليه السلام) والإقدام على تكذيب فرعون. وثالثها: أنهم عرفوا أن الأمور بيد الله فإنه لا عز في الدنيا أكمل مما كان لفرعون ولا شدة أشد مما كانت ببني إسرائيل، ثم إن الله تعالى في لحظة واحدة جعل العزيز ذليلاً والذليل عزيزاً، وذلك يوجب انقطاع القلب عن علائق الدنيا والإقبال بالكلية على خدمة الخالق والتوكل عليه في كل الأمور، وأما النعم الحاصلة لأمة محمد (صلى الله عليه وسلم) من ذكر هذه القصة فكثيرة، أحدها: أنه كالحجة لمحمد (صلى الله عليه وسلم) على أهل الكتاب لأنه كان معلوماً من حال محمد عليه الصلاة والسلام أنه كان أمياً لم يقرأ ولم يكتب ولم يخالط أهل الكتاب فإذا أورد عليهم من أخبارهم المفصلة ما لا يعلم إلاّ من الكتب علموا أنه أخبر عن الوحي وأنه صادق، فصار ذلك حجة له (عليه السلام) على اليهود وحجة لنا في تصديقه. وثانيها: أنا إذا تصورنا ما جرى لهم وعليهم من هذه الأمور العظيمة علمنا أن من خالف الله شقي في الدنيا والآخرة ومن أطاعه فقد سعد في الدنيا والآخرة، فصار ذلك مرغباً لنا في الطاعة ومنفراً عن المعصية. وثالثها: أن أمة موسى (عليه السلام) مع أنهم خصوا بهذه المعجزات الظاهرة والبراهين الباهرة، فقد خالفوا موسى (عليه السلام) في أمور حتى قالوا: ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ الأعراف: ١٣٨، وأما أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) فمع أن معجزتهم هي القرآن الذي لا يعرف كونه معجزاً إلاّ بالدلائل الدقيقة انقادوا لمحمد (صلى الله عليه وسلم) وما خالفوه في أمر ألبتة، وهذا يدل على أن أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) أفضل من أمة موسى (عليه السلام).

وأما قوله تعالى: ﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ ففيه وجوه. أحدها: أنكم ترون التطام أمواج البحر

بفرعون وقومه. وثانيها: أن قوم موسى (عليه السلام) سألوه أن يريهم الله تعالى حالهم فسأل موسى (عليه السلام) ربه أن يريهم إياهم فلفظهم البحر ألف ألف ومائتي ألف نفس وفرعون معهم، فنظروا إليهم طافين وإن البحر لم يقبل واحداً منهم لشؤم كفرهم فهو قوله تعالى: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗ ﴾يونس: ٩٢ أي نخرجك من مضيق البحر إلى سعة الفضاء ليراك الناس، وتكون عبرة لهم. وثالثها: أن المراد وأنتم بالقرب منهم حيث توجهونهم وتقابلونهم وإن كانوا لا يرونهم بأبصارهم، قال الفراء وهو مثل قولك: لقد ضربتك وأهلك ينظرون إليك فما أغاثوك تقول ذلك إذا قرب أهله منه وإن كانوا لا يرونه ومعناه راجع إلى العلم.

﴿ وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴾البقرة: ٥١

﴿ ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾البقرة: ٥٢

اعلم أن هذا هو الإنعام الثالث. فأما قوله تعالى: ﴿وَإِذْ واعَدْنَا﴾ فقرأ أبو عمرو ويعقوب وإذ وعدنا موسى بغير ألف في هذه السورة وفي الأعراف وطه وقرأ الباقون واعدنا بالألف في المواضع الثلاثة، فأما بغير ألف فوجهه ظاهر لأن الوعد كان من الله تعالى، والمواعدة مفاعلة ولا بد من اثنين، وأما بالألف فله وجوه، أحدها: أن الوعد وإن كان من الله تعالى فقبوله كان من موسى (عليه السلام) وقبول الوعد يشبه الوعد، لأن القابل للوعد لا بد وأن يقول أفعل ذلك، وثانيها: قال القفال: لا يبعد أن يكون الآدمي يعد الله ويكون معناه يعاهد الله. وثالثها: أنه أمر جرى بين اثنين فجاز أن يقال واعدنا. ورابعها: وهو الأقوى أن الله تعالى وعده الوحي وهو وعد الله المجيء للميقات إلى الطور، أما موسى ففيه وجوه، أحدها: وزنه فعلى والميم فيه أصلية أخذت من ماس يميس إذا تبختر في مشيته وكان موسى (عليه السلام) كذلك. وثانيها: وزنه مفعل فالميم فيه زائدة وهو من أوسيت الشجرة إذا أخذت ما عليها من الورق وكأنه سمي بذلك لصلعه، وثالثها: أنها كلمة مركبة من كلمتين بالعبرانية فمو هو الماء بلسانهم، وسى هو الشجر، وإنما سمي بذلك لأن أمه جعلته في التابوت حين خافت عليه من فرعون فألقته في البحر فدفعته أمواج البحر حتى أدخلته بين أشجار عند بيت فرعون، فخرجت جواري آسية امرأة فرعون يغتسلن فوجدن التابوت فأخذنه فسمي باسم المكان الذي أصيب فيه وهو الماء

والشجر. واعلم أن الوجهين الأولين فاسدان جداً، أما الأول: فلأن بني إسرائيل والقبط ما كانوا يتكلمون بلغة العرب فلا يجوز أن يكون مرادهم ذلك، وأما الثاني: فلأن هذه اللفظة اسم علم واسم العلم لا يفيد معنى في الذات والأقرب هو الوجه الثالث وهو أمر معتاد بين الناس، فأما نسبه (صلى الله عليه وسلم) فهو موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم (عليهم السلام). أما قوله تعالى: ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ ففيه أبحاث:

البحث الأول: أن موسى (عليه السلام) قال لبني إسرائيل: إن خرجنا من البحر سالمين أتيتكم من عند الله بكتاب بين لكم فيه ما يجب عليكم من الفعل والترك، فلما جاوز موسى البحر ببني إسرائيل وأغرق الله فرعون قالوا: يا موسى ائتنا بذلك الكتاب الموعود فذهب إلى ربه ووعدهم أربعين ليلة وذلك قوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ الأعراف: ١٤٢ واستخلف عليهم هارون ومكث على الطور أربعين ليلة وأنزل الله التوراة عليه في الألواح، وكانت الألواح من زبرجد فقربه الرب نجياً وكلمه من غير واسطة وأسمعه صرير القلم، قال أبو العالية وبلغنا أنه لم يحدث حدثاً في الأربعين ليلة حتى هبط من الطور.

البحث الثاني: إنما قال أربعين ليلة لأن الشهور تبدأ من الليالي.

البحث الثالث: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ معناه واعدنا موسى انقضاء أربعين ليلة كقولهم: اليوم أربعون يوماً منذ خرج فلان، أي تمام الأربعين، والحاصل أنه حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه، كما في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ يوسف: ٨٢

وأيضاً فليس المراد انقضاء أي أربعين كان، بل أربعين معيناً وهو الثلاثون من ذي القعدة والعشر الأول من ذي الحجة لأن موسى (عليه السلام) كان عالماً بأن المراد هو هذه الأربعون، وأيضاً فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ يحتمل أن يكون المراد أنه وعد قبل هذه الأربعين أن يجيء إلى الجبل هذه الأربعين حتى تنزل عليه التوراة، ويحتمل أن يكون المراد أنه أمر بأن يجيء إلى الجبل هذه الأربعين ووعد بأنه ستنزل عليه بعد ذلك التوراة، وهذا الاحتمال الثاني هو المتأيد بالأخبار.

البحث الرابع: قوله ههنا: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ يفيد أن المواعدة كانت من

أول الأمر على الأربعين، وقوله في الأعراف ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾ يفيد أن المواعدة كانت في أول الأمر على الثلاثين فكيف التوفيق بينهما؟ أجاب الحسن البصري فقال: ليس المراد أن وعده كان ثلاثين ليلة ثم بعد ذلك وعده بعشر لكنه وعده أربعين ليلة جميعاً، وهو كقوله: ﴿ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾الأعراف: ١٩٦ .

أما قوله تعالى:﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾البقرة ٥١ ففيه أبحاث:

البحث الأول: إنما ذكر لفظه (ثم)؛ لأنه تعالى وعد موسى حضور الميقات لإنزال التوراة عليه بحضرة السبعين. وأظهر في ذلك درجة موسى (عليه السلام) وفضيلة بني إسرائيل ليكون ذلك تنبيهاً للحاضرين على علو درجتهم وتعريفاً للغائبين وتكملة للدين، كان ذلك من أعظم النعم فلما أتوا عقيب ذلك بأقبح أنواع الجهل والكفر كان ذلك في محل التعجب فهو كمن يقول إنني أحسنت إليك وفعلت كذا وكذا، ثم إنك تقصدني بالسوء والإيذاء.

البحث الثاني: قال أهل السير إن الله تعالى لما أغرق فرعون ووعد موسى (عليه السلام) إنزال التوراة عليه قال موسى لأخيه هارون: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾الأعراف: ١٤٢ ، فلما ذهب موسى إلى الطور، وكان قد بقي مع بني إسرائيل الثياب والحلي الذي استعاروه من القبط قال لهم هارون إن هذه الثياب والحلي لا تحل لكم فأحرقوها فجمعوا ناراً وأحرقوها، وكان السامري في مسيره مع موسى (عليه السلام) في البحر نظر إلى حافر دابة جبريل (عليه السلام) حين تقدم على فرعون في دخول البحر فقبض قبضة من تراب حافر تلك الدابة، ثم إن السامري أخذ ما كان معه من الذهب والفضة وصور منه عجلاً وألقى ذلك التراب فيه فخرج منه صوت كأنه الخوار، فقال للقوم: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾طه: ٨٨، فاتخذه القوم إلهاً لأنفسهم فهذا ما في الرواية ولقائل أن يقول: الجمع العظيم من العقلاء لا يجوز أن يتفقوا على ما يعلم فساده ببديهة العقل وهذه الحكاية كذلك لوجوه: أحدها: أن

كل عاقل يعلم ببديهة عقله أن الصنم المتخذ من الذهب الذي لا يتحرك ولا يحس ولا يعقل يستحيل أن يكون إله السموات والأرض، وهب أنه ظهر منه خوار ولكن هذا القدر لا يصلح أن يكون شبهة في قلب أحد من العقلاء في كونه إلهاً، وثانيها: أن القوم كانوا قد شاهدوا قبل ذلك من المعجزات القاهرة التي تكون قريبة من حد الإلجاء في الدلالة على الصانع وصدق موسى (عليه السلام)، فمع قوة هذه الدلالة وبلوغها إلى حد الضرورة ومع أن صدور الخوار من ذلك العجل المتخذ من الذهب يستحيل أن يقتضي شبهة في كون ذلك الجسم المصوت إلهاً. والجواب: هذه الواقعة لا يمكن تصحيحها إلاّ على وجه واحد، وهو أن يقال: إن السامري ألقى إلى القوم أن موسى (عليه السلام) إنما قدر على ما أتى به؛ لأنه كان يتخذ طلسمات على قوى فلكية وكان يقدر بواسطتها على هذه المعجزات، فقال السامري للقوم: وأنا أتخذ لكم طلسماً مثل طلسمه وروح عليهم ذلك بأن جعله بحيث خرج منه صوت عجيب فأطمعهم في أن يصيروا مثل موسى (عليه السلام) في الإتيان بالخوارق، أو لعل القوم كانوا مجسمة وحلولية فجوزوا حلول الإله في بعض الأجسام فلذلك وقعوا في تلك الشبهة.

البحث الثالث: هذه القصة فيها فوائد: أحدها: أنها تدل على أن أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) خير الأمم، لأن أولئك اليهود مع أنهم شاهدوا تلك البراهين القاهرة اغتروا بهذه الشبهة الركيكة جداً، وأما أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) فإنهم مع أنهم محتاجون في معرفة كون القرآن معجزاً إلى الدلائل الدقيقة لم يغتروا بالشبهات القوية العظيمة، وذلك يدل على أن هذه الأمة خير من أولئك وأكمل عقلاً وأزكى خاطراً منهم. وثانيها: أنه (عليه الصلاة والسلام) ذكر هذه الحكاية مع أنه لم يتعلم علماً، وذلك يدل على أنه (عليه الصلاة والسلام) استفادها من الوحي. وثالثها: فيه تحذير عظيم من التقليد والجهل بالدلائل فإن أولئك الأقوام لو أنهم عرفوا الله بالدليل معرفة

تامة لما وقعوا في شبهة السامري. ورابعها: في تسلية النبي (صلى الله عليه وسلم) مما كان يشاهد من مشركي العرب واليهود والنصارى بالخلاف عليه وكأنه تعالى أمره بالصبر على ذلك كما صبر موسى (عليه الصلاة والسلام) في هذه الواقعة النكدة فإنهم بعد أن خلصهم الله من فرعون وأراهم المعجزات العجيبة من أول ظهور موسى إلى ذلك الوقت اغتروا بتلك الشبهة الركيكة، ثم إن موسى (عليه السلام) صبر على ذلك فلأن يصبر محمد عليه الصلاة والسلام على أذية قومه كان ذلك أولى. وخامسها: أن أشد الناس مجادلة مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) وعداوة له هم اليهود فكأنه تعالى قال: إن هؤلاء إنما يفتخرون بأسلافهم، ثم إن أسلافهم كانوا في البلادة والجهالة والعناد إلى هذا الحد فكيف هؤلاء الأخلاف.

أما قوله تعالى: ﴿ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ ففيه أبحاث:

البحث الأول: في تفسير الظلم وفيه وجهان. الأول: قال أبو مسلم الظلم في أصل اللغة هو النقص، قال الله تعالى: ﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ﴾ الكهف: ٣٣، والمعنى أنهم لما تركوا عبادة الخالق المحيي المميت واشتغلوا بعبادة العجل فقد صاروا ناقصين في خيرات الدين والدنيا. والثاني: أن الظلم في عرف الشرع عبارة عن الضرر الخالي من نفع يزيد عليه ودفع مضرة أعظم منه والاستحقاق عن الغير في علمه أو ظنه، فإذا كان الفعل بهذه الصفة كان فاعله ظالماً ثم إن الرجل إذا فعل ما يؤديه إلى العقاب والنار قيل: إنه ظالم نفسه وإن كان في الحال نفعاً ولذة كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾لقمان: ١٣، وقال: ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾فاطر: ٣٢ ولما كانت عبادتهم لغير الله شركاً وكان الشرك مؤدياً إلى النار سمي ظلماً.

البحث الثاني: استدلت المعتزلة بقوله:﴿ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ على أن المعاصي ليست بخلق الله تعالى من وجوه، أحدها: أنه تعالى ذمهم عليها ولو كانت مخلوقة لله تعالى لما استحق الذم إلاّ من فعلها. وثانيها: أنها لو

كانت بإرادة الله تعالى لكانوا مطيعين لله تعالى بفعلها؛ لأن الطاعة عبارة عن فعل المراد. وثالثها: لو كان العصيان مخلوقاً لله تعالى لكان الذم بسببه يجري مجرى الذم بسبب كونه أسود وأبيض وطويلاً وقصيراً، والجواب: هذا تمسك بفعل المدح والذم وهو معارض بمسألتي الداعي والعلم ذلك مراراً.

البحث الثالث: في الآية تنبيه على أن ضرر الكفر لا يعود إلاّ عليهم لأنهم ما استفادوا بذلك إلاّ أنهم ظلموا أنفسهم، وذلك يدل على أن جلال الله منزه عن الاستكمال بطاعة الاتقياء والانتقاص بمعصية الأشقياء.

أما قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ فقالت المعتزلة: المراد ثم عفونا عنكم بسبب إتيانكم بالتوبة وهي قتل بعضهم بعضاً، وهذا ضعيف من وجهين، الأول: أن قبول التوبة واجب عقلاً فلو كان المراد ذلك لما جاز عده في معرض الإنعام؛ لأن أداء الواجب لا يعد من باب الإنعام والمقصود من هذه الآيات تعديد نعم الله تعالى عليهم. الثاني: أن العفو اسم لإسقاط العقاب المستحق فأما إسقاط ما يجب إسقاطه فذاك لا يسمى عفواً ألا ترى أن الظالم لما لم يجز له تعذيب المظلوم، فإذا ترك ذلك العذاب لايسمى ذلك الترك عفواً فكذا ههنا، وإذا ثبت هذا فنقول لا شك في حصول التوبة في هذه الصورة لقوله تعالى: ﴿ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾البقرة: ٥٤ وإذا كان كذلك دلت هذه الآية على أن قبول التوبة غير واجب عقلاً، وإذا ثبت ذلك ثبت أيضاً أنه تعالى قد أسقط عقاب من يجوز عقابه عقلاً وشرعاً، وذلك أيضاً خلاف قول المعتزلة، وإذا ثبت أنه تعالى عفا عن كفار قوم موسى فلأن يعفو عن فساق أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) مع أنهم: خير أمة أخرجت للناس كان أولى.

أما قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ فاعلم أن الكلام في تفسير «لعل» قد تقدم في قوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾الأنعام: ١٥٣ [الأعراف: ١٧١] [البقرة: ٢١، ٣٣] وأما الكلام في حقيقة الشكر وماهيته فطويل وسيجيء إن شاء الله تعالى، ثم قالت المعتزلة: إنه تعالى بين أنه إنما عفا عنهم ولم يؤاخذهم لكي يشكروا، وذلك

يدل على أنه تعالى لم يرد منهم إلاّ الشكر، والجواب: لو أراد الله تعالى منهم الشكر لأراد ذلك إما بشرط أن يحصل للشاكر داعية الشكر أولاً بهذا الشرط فإن كان هذا الشرط من العبد لزم افتقار الداعية إلى داعية أخرى، وإن كان من الله فحيث خلق الله الداعي حصل الشكر لا محالة وحيث لم يخلق الداعي استحال حصول الشكر، وذلك ضد قول المعتزلة وإن أراد حصول الشكر منه من غير هذه الداعية فقد أراد منه المحال لأن الفعل بدون الداعي محال فثبت أن الإشكال وارد عليهم أيضاً والله أعلم.

﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ البقرة ٥٣

اعلم أن هذا هو الإنعام الرابع والمراد من الفرقان يحتمل أن يكون هو التوراة وأن يكون شيئاً داخلاً في التوراة وأن يكون شيئاً خارجاً عن التوراة فهذه أقسام ثلاثة لا مزيد عليها وتقرير الاحتمال الأول أن التوراة لها صفتان كونها كتاباً منزلاً وكونها فرقاناً تفرق بين الحق والباطل فهو كقولك: رأيت الغيث والليث تريد الرجل الجامع بين الجود والجراءة ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا ﴾ الأنبياء: ٤٨

وأما تقرير الاحتمال الثاني فهو أن يكون المراد من الفرقان ما في التوراة من بيان الدين لأنه إذا أبان ظهر الحق متميزاً من الباطل، فالمراد من الفرقان بعض ما في التوراة وهو بيان أصول الدين وفروعه. وأما تقرير الاحتمال الثالث فمن وجوه، أحدها: أن يكون المراد من الفرقان ما أوتي موسى (عليه السلام) من اليد والعصا وسائر الآيات وسميت بالفرقان لأنها فرقت بين الحق والباطل. وثانيها: أن يكون المراد من الفرقان النصر والفرج الذي آتاه الله بني إسرائيل على قوم فرعون، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ﴾ الأنفال: ٤١ والمراد النصر الذي آتاه الله يوم بدر، وذلك لأن قبل ظهور النصر يتوقع كل واحد من الخصمين في أن يكون هو المستولي وصاحبه هو

المقهور، فإذا ظهر النصر تميز الراجح من المرجوح وانفرق الطمع الصادق من الطمع الكاذب، وثالثها: قال قطرب الفرقان هو انفراق البحر لموسى (عليه السلام).

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

اعلم أن هذا الإنعام الخامس قال بعض المفسرين: هذه الآية وما بعدها منقطعة عما تقدم من التذكير بالنعم وذلك لأنها أمر بالقتل والقتل لا يكون نعمة وهذا ضعيف من وجوه، أحدها: أن الله تعالى نبههم على عظم ذنبهم، ثم نبههم على ما به يتخلصون عن ذلك الذنب العظيم وذلك من أعظم النعم في الدين، وإذا كان الله تعالى قد عدد عليهم النعم الدنيوية فبأن يعدد عليهم هذه النعمة الدينية أولى، ثم إن هذه النعمة وهي كيفية هذه التوبة لما لم يكن وصفها إلاّ بمقدمة ذكر المعصية كان ذكرها أيضاً في تمام النعمة. فصار كل ما تضمنته هذه الآية معدوداً في نعم الله فجاز التذكير بها. وثانيها: أن الله تعالى لما أمرهم بالقتل رفع ذلك الأمر عنهم قبل فنائهم بالكلية فكان ذلك نعمة في حق أولئك الباقين. وفي حق الذين كانوا موجودين في زمان محمد (عليه الصلاة والسلام)، لأنه تعالى لولا أنه رفع القتل عن آبائهم لما وجد أولئك الأبناء فحسن إيراده في معرض الامتنان على الحاضرين في زمان محمد (عليه الصلاة والسلام)، وثالثها: أنه تعالى لما بين أن توبة أولئك ما تمت إلاّ بالقتل مع أن محمداً (عليه الصلاة والسلام) كان يقول لهم: لا حاجة بكم الآن في التوبة إلى القتل بل إن رجعتم عن كفركم وآمنتم قبل الله إيمانكم منكم فكان بيان التشديد في تلك التوبة تنبيهاً على الإنعام العظيم بقبول مثل هذه التوبة السهلة الهينة. ورابعها: أن فيه ترغيباً شديداً لأمة محمد (صلوات

الله وسلامه عليه) في التوبة، فإن أمة موسى (عليه السلام) لما رغبوا في تلك التوبة مع نهاية مشقتها على النفس فلأن يرغب الواحد منا في التوبة التي هي مجرد الندم كان أولى. ومعلوم أن ترغيب الإنسان فيما هو المصلحة المهمة من أعظم النعم.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ﴾ أي واذكروا إذ قال موسى لقومه بعدما رجع من الموعد الذي وعده ربه فرآهم قد اتخذوا العجل ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم ﴾ وللمفسرين في الظلم قولان: أحدهما: أنكم نقصتم أنفسكم الثواب الواجب بالإقامة على عهد موسى (عليه السلام)، والثاني: أن الظلم هو الإصرار الذي ليس بمستحق ولا فيه نفع ولا دفع مضرة لا علماً ولا طباً، فلما عبدوا العجل كانوا قد أضروا بأنفسهم لأن ما يؤدي إلى ضرر الأبد من أعظم الظلم، ولذلك قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾لقمان: ١٣لكن هذا الظلم من حقه أن يقيد لئلا يوهم إطلاقه إنه ظلم الغير؛ لأن الأصل في الظلم ما يتعدى، فلذلك قال: ﴿ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿ بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ ففيه حذف لأنهم لم يظلموا أنفسهم بهذا القدر لأنهم لو اتخذوه ولم يجعلوه إلهاً لم يكن فعلهم ظلماً، فالمراد باتخاذكم العجل إلهاً، لكن لما دلت مقدمة الآية على هذا المحذوف حسن الحذف.

أما قوله تعالى: ﴿ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ ففيه سؤالات.

السؤال الأول: قوله تعالى: ﴿ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ يقتضي كون التوبة مفسرة بقتل النفس كما أن قوله (عليه السلام): «لا يقبل الله صلاة أحدكم حتى يضع الطهور مواضعه فيغسل وجهه ثم يديه» يقتضي أن وضع الطهور مواضعه مفسر بغسل الوجه واليدين ولكن ذلك باطل لأن التوبة عبارة عن الندم على الفعل القبيح الذي مضى والعزم على أن لا يأتي بمثله بعد ذلك وذلك مغاير لقتل النفس وغير مستلزم له فكيف يجوز تفسيره به؟

والجواب ليس المراد تفسير التوبة بقتل النفس بل بيان أن توبتهم لا تتم ولا تحصل إلا بقتل النفس وإنما كان كذلك لأن الله تعالى أوحى إلى موسى (عليه السلام) أن شرط توبتهم قتل النفس كما أن القاتل عمداً لا تتم توبته إلاّ بتسليم النفس حتى يرضى أولياء المقتول أو يقتلوه فلا يمتنع أن يكون من شرع موسى (عليه السلام) أن توبة المرتد لا تتم إلاّ بالقتل. إذا ثبت هذا فنقول شرط الشيء قد يطلق عليه اسم ذلك الشيء مجازاً كما يقال للغاصب إذا قصد التوبة أن توبتك ردماً غصبت يعني أن توبتك لا تتم إلاّ به فكذا ههنا.

السؤال الثاني: ما معنى قوله تعالى: ﴿ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ ﴾ والتوبة لا تكون إلاّ للبارىء، والجواب: المراد منه النهي عن الرياء في التوبة كأنه قال لهم: لو أظهرتم التوبة لا عن القلب فأنتم ما تبتم إلى الله الذي هو مطلع على ضميركم، وإنما تبتم إلى الناس وذلك مما لا فائدة فيه، فإنكم إذا أذنبتم إلى الله.

السؤال الثالث: كيف اختص هذا الموضع بذكر البارىء؟ والجواب: البارىء هو الذي خلق الخلق بريئاً من التفاوت: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖ ﴾ الملك: ٣ ومتميزاً بعضه عن بعض بالأشكال المختلفة والصور المتباينة فكان ذلك تنبيهاً على أن من كان كذلك فهو أحق بالعبادة من البقر الذي يضرب به المثل في الغباوة.

السؤال الرابع: ما الفرق بين الفاء في قوله: ﴿ فَتُوبُوٓاْ ﴾ والفاء في قوله: ﴿ فَٱقۡتُلُوٓاْ ﴾؟ الجواب: أن الفاء الأولى للسبب لأن الظلم سبب التوبة والثانية للتعقيب لأن القتل من تمام التوبة فمعنى قوله: ﴿ فَتُوبُوٓاْ ﴾ أي فأتبعوا التوبة القتل تتمة لتوبتكم.

السؤال الخامس: ما المراد بقوله: ﴿ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾ أهو ما يقتضيه ظاهره من أن يقتل كل واحد نفسه أو المراد غير ذلك؟ الجواب: اختلف الناس فيه فقال قوم من المفسرين. لا يجوز أن يكون المراد أمر كل واحد من التائبين

بقتل نفسه وهو اختيار القاضي عبد الجبار، واحتجوا عليه بوجهين. الأول: وهو الذي عول عليه أهل التفسير أن المفسرين أجمعوا على أنهم ما قتلوا أنفسهم بأيديهم ولو كانوا مأمورين بذلك لصاروا عصاة بترك ذلك، الثاني: وهو الذي عول عليه القاضي عبد الجبار أن القتل هو نقض البنية التي عندها يجب أن يخرج من أن يكون حياً وما عدا ذلك مما يؤدي إلى أن يموت قريباً أو بعيداً إنما سمي قتلاً على طريق المجاز. بل الوجه الأول الذي عول عليه المفسرون أقوى، وعلى هذا يجب صرف الآية عن ظاهرها، ثم فيه وجهان، الأول: أن يقال أمر كل واحد من أولئك التائبين بأن يقتل بعضهم بعضاً فقوله: ﴿ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾ معناه ليقتل بعضكم بعضاً وهو كقوله في موضع آخر: ﴿ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾النساء: ٢٩ ومعناه لا يقتل بعضكم بعضاً وتحقيقه أن المؤمنين كالنفس الوحدة، وقيل في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾الحجرات: ١١ أي إخوانكم من المؤمنين، وفي قوله: ﴿ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا ﴾النور: ١٢ أي بأمثالهم من المسلمين، وكقوله: ﴿ فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ ﴾النور: ٦١ أي ليسلم بعضكم على بعض. ثم قال المفسرون: أولئك التائبون برزوا صفين فضرب بعضهم بعضاً إلى الليل. الوجه الثاني: أن الله تعالى أمر غير أولئك التائبين بقتل أولئك التائبين فيكون المراد من قوله: ﴿ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾ أي استسلموا للقتل، وهذا الوجه الثاني أقرب لأن في الوجه الأول تزداد المشقة؛ لأن الجماعة إذا اشتركت في الذنب كان بعضهم أشد عطفاً على البعض من غيرهم عليهم فإذا كلفوا بأن يقتل بعضهم بعضاً عظمت المشقة في ذلك ثم اختلفت الروايات، فالأول: أنه أمر من لم يعبد العجل من السبعين المختارين لحضور الميقات أن يقتل من عبد العجل منهم، وكان المقتولون سبعين ألفاً فما تحركوا حتى قتلوا على ثلاثة أيام، وهذا لقول ذكره محمد بن إسحاق. الثاني: أنه لما أمرهم موسى (عليه السلام) بالقتل أجابوا فأخذ عليهم المواثيق ليصبروا على القتل فأصبحوا مجتمعين كل قبيلة على حدة وأتاهم هارون بالإثني عشر ألفاً الذين لم يعبدوا العجل

ألبتة وبأيديهم السيوف، فقال التائبون: إن هؤلاء إخوانكم قد أتوكم شاهرين السيوف فاتقوا الله واصبروا فلعن الله رجلاً قام من مجلسه أو مد طرفه إليهم أو اتقاهم بيد أو رجل يقولون أمين، فجعلوا يقتلونهم إلى المساء وقام موسى وهارون (عليهما السلام) يدعوان الله ويقولان البقية البقية يا إلهنا فأوحى الله تعالى إليهما، قد غفرت لمن قتل وتبت على من بقي، قال: وكان القتلى سبعين ألفاً، هذه رواية الكلبي. الثالث: أن بني إسرائيل كانوا قسمين: منهم من عبد العجل ومنهم من لم يعبده ولكن لم ينكر على من عبده، فأمر من لم يشتغل بالإنكار بقتل من اشتغل بالعبادة، ثم قال المفسرون: إن الرجل كان يبصر والده وولده وجاره فلم يمكنه المضي لأمر الله فأرسل الله تعالى سحابة سوداء، ثم أمر بالقتل فقتلوا إلى المساء حتى دعا موسى وهارون (عليهما السلام) وقالا: يا رب هلكت بنو إسرائيل البقية البقية فانكشفت السحابة ونزلت التوراة وسقطت الشفار من أيديهم.

السؤال السادس: كيف استحقوا القتل وهم قد تابوا من الردة والتائب من الردة لا يقتل؟ الجواب: ذلك مما يختلف بالشرائع فلعل شرع موسى (عليه السلام) كان يقتضي قتل التائب عن الردة إما عاماً في حق الكل أو كان خاصاً بذلك القوم.

السؤال السابع: هل يصح ما روي أن منهم من لم يقتل ممن قبل الله توبته؟ الجواب: لا يمتنع ذلك لأن قوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم ﴾ خطاب مشافهة فلعله كان مع البعض أو إنه كان عاماً فالعام قد يتطرق إليه التخصيص.

أما قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ ﴾ ففيه تنبيه على ما لأجله يمكن تحمل هذه المشقة وذلك لأن حالتهم كانت دائرة بين ضرر الدنيا وضرر الآخرة، والأول أولى بالتحمل لأنه متناه، وضرر الآخرة غير متناه، ولأن الموت لا بد واقع فليس في تحمل القتل إلاّ التقدم والتأخير، وأما الخلاص من العقاب

والفوز بالثواب فذاك هو الغرض الأعظم.

أما قوله تعالى: ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ ففيه محذوف، ثم فيه وجهان: أحدهما: أن يقدر من قول موسى (عليه السلام) كأنه قال: فإن فعلتم فقد تاب عليكم، والآخر: أن يكون خطاباً من الله لهم على طريقة الالتفات فيكون التقدير ففعلتم ما أمركم به موسى فتاب عليكم بارئكم.

وأما معنى قوله تعالى: ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾، فقد تقدم في قوله: ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾.

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ البقرة: ٥٥ - ٦٥

اعلم أن هذا هو الإنعام السادس، بيانه من وجوه، أحدها: كأنه تعالى قال: اذكروا نعمتي حين قلتم لموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة ثم أحييتكم لتتوبوا عن بغيكم وتتخلصوا عن العقاب وتفوزوا بالثواب، وثانيها: أن فيها تحذيراً لمن كان في زمان نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) عن فعل ما يستحق بسببه أن يفعل به ما فعل بأولئك. وثالثها: تشبيههم في جحودهم معجزات النبي (صلى الله عليه وسلم) بأسلافهم في جحود نبوة موسى (عليه السلام) مع مشاهدتهم لعظم تلك الآيات الظاهرة وتنبيهاً على أنه تعالى إنما لا يظهر عن النبي (صلى الله عليه وسلم) مثلها لعلمه بأنه لو أظهرها لجحودها ولو جحدوها لاستحقوا العقاب مثل ما استحقه أسلافهم، ورابعها: فيه تسلية للنبي (صلى الله عليه وسلم) مما كان يلاقي منهم وتثبيت لقلبه على الصبر كما صبر أولو العزم من الرسل. وخامسها: فيه إزالة شبهة من يقول: إن نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) لو صحت لكان أولى الناس بالإيمان به أهل الكتاب لما أنهم عرفوا خبره، وذلك لأنه تعالى بين أن أسلافهم مع مشاهدتهم تلك الآيات الباهرة على نبوة موسى (عليه السلام) كانوا يرتدون

كل وقت ويتحكمون عليه ويخالفونه فلا يتعجب من مخالفتهم لمحمد (عليه الصلاة والسلام) وإن وجدوا في كتبهم الأخبار عن نبوته. وسادسها: لما أخبر محمد (عليه الصلاة والسلام) عن هذه القصص مع أنه كان أميّاً لم يشتغل بالتعلم ألبتة وجب أن يكون ذلك عن الوحي.

البحث الثاني: للمفسرين في هذه الواقعة قولان، الأول: أن هذه الواقعة كانت بعد أن كلّف الله عبدة العجل بالقتل، قال محمد بن اسحاق: لما رجع موسى (عليه السلام) من الطور إلى قومه فرأى ما هم عليه من عبادة العجل وقال لأخيه والسامري ما قال. وحرق العجل وألقاه في البحر، اختار من قومه سبعين رجلاً من خيارهم فلما خرجوا إلى الطور قالوا لموسى: سل ربك حتى يسمعنا كلامه، فسأل موسى (عليه السلام) ذلك فأجابه الله إليه ولما دنا من الجبل وقع عليه عمود من الغمام وتغشى الجبل كله ودنا من موسى ذلك الغمام حتى دخل فيه فقال للقوم: ادخلوا وعوا، وكان موسى (عليه السلام) متى كلمه ربه وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم النظر إليه، وسمع القوم كلام الله مع موسى (عليه السلام) يقول له: افعل ولا تفعل، فلما تم الكلام انكشف عن موسى الغمام الذي دخل فيه فقال القوم بعد ذلك: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأخذتهم الصاعقة وماتوا جميعاً وقام موسى رافعاً يديه إلى السماء يدعو ويقول: يا إلهي اخترت من بني إسرائيل سبعين رجلاً ليكونوا شهودي بقبول توبتهم، فارجع إليهم وليس معي منهم واحد، فما الذي يقولون فيّ، فلم يزل موسى مشتغلاً بالدعاء حتى رد الله إليهم أرواحهم وطلب توبة بني إسرائيل من عبادة العجل فقال: لا إلاّ أن يقتلوا أنفسهم.

القول الثاني: أن هذه الواقعة كانت بعد القتل، قال السدي: لما تاب بنو إسرائيل من عبادة العجل بأن قتلوا أنفسهم أمر الله تعالى أن يأتيهم موسى في ناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادتهم العجل، فاختار موسى سبعين رجلاً، فلما أتوا الطور قالوا: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأخذتهم

الصاعقة وماتوا فقام موسى يبكي ويقول: يا رب ماذا أقول لبني إسرائيل، فإني أمرتهم بالقتل ثم اخترت من بقيتهم هؤلاء، فإذا رجعت إليهم ولا يكون معي منهم أحد فماذا أقول لهم؟ فأوحى الله إلى موسى أن هؤلاء السبعين ممن اتخذوا العجل إلهاً فقال موسى: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾الأعراف: ١٥٥ إلى قوله: ﴿ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾الأعراف: ١٥٦ ثم إنه تعالى أحياهم فقاموا ونظر كل واحد منهم إلى الآخر كيف يحييه الله تعالى، فقالوا: يا موسى إنك لا تسأل الله شيئاً إلاّ أعطاك فادعه يجعلنا أنبياء، فدعاه بذلك فأجاب الله دعوته. واعلم أنه ليس في الآية ما يدل على ترجيح أحد القولين على الآخر وكذلك ليس فيها ما يدل على أن الذين سألوا الرؤية هم الذين عبدوا العجل أو غيرهم.

أما قوله تعالى: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ ﴾ فمعناه لا نصدقك ولا نعترف بنبوتك حتى نرى الله جهرة (أي) عياناً. قال صاحب الكشاف: وهي مصدر من قولك: جهرت بالقراءة وبالدعاء كأن الذي يرى بالعين جاهر بالرؤية والذي يرى بالقلب مخافت بها وانتصار بها على المصدر لأنها نوع من الرؤية، فنصبت بفعلها كما ينصب القرفصاء بفعل الجلوس أو على الحال بمعنى ذوي جهرة وقرىء جهرة بفتح الهاء وهي إما مصدر كالغلبة وإما جمع جاهر، وقال القفال أصل الجهرة من الظهور يقال جهرت الشيء إذا كشفته وجهرت البئر إذا كان ماؤها مغطى بالطين فنقيته حتى ظهر ماؤه ويقال صوت جهير ورجل جهوري الصوت، إذا كان صوته عالياً، ويقال: وجه جهير إذا كان ظاهر الوضاءة، وإنما قالوا: جهرة تأكيداً لئلا يتوهم متوهم أن المراد بالرؤية العلم أو التخيل على (نحو) ما يراه النائم.

أما قوله تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ ﴾ ففيه أبحاث:

البحث الأول: استدلت المعتزلة بذلك على أن رؤية الله ممتنعة، قال القاضي عبد الجبار: إنها لو كانت جائزة لكانوا قد التمسوا أمراً مجوزاً فوجب أن لا تنزل بهم العقوبة كما لم تنزل بهم العقوبة لما التمسوا النقل من قوت إلى

قوت وطعام إلى طعام في قوله تعالى: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾البقرة٦١، وقال أبو الحسين في كتاب التصفح: إن الله تعالى ما ذكر سؤال الرؤية إلاّ استعظمه، وذلك في آيات. أحدها: هذه الآية فإن الرؤية لو كانت جائزة لكان قولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ كقول الأمم لأنبيائهم: لن نؤمن إلاّ بإحياء ميت في أنه لا يستعظم ولا تأخذهم الصاعقة. وثانيها: قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ﴾النساء: ١٥٣، فسمى ذلك ظلماً وعاقبهم في الحال، فلو كانت الرؤية جائزة لجرى سؤالهم لها مجرى من يسأل معجزة زائدة. فإن قلت أليس إنه سبحانه وتعالى قد أجرى إنزال الكتاب من السماء مجرى الرؤية في كون كل واحد منهما عتوا، فكما أن إنزال الكتاب غير ممتنع في نفسه فكذا سؤال الرؤية. قلت: الظاهر يقتضي كون كل واحد منهما ممتنعاً ترك العمل به في إنزال الكتاب فيبقى معمولاً به في الرؤية. وثالثها: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾الفرقان: ٢١ فالرؤية لو كانت جائزة وهي عند مجزيها من أعظم المنافع لم يكن التماسها عتواً لأن من سأل الله تعالى نعمة في الدين أو الدنيا لم يكن عاتياً وجرى ذلك مجرى ما يقال: لن نؤمن لك حتى يحيي الله بدعائك هذا الميت.

البحث الثاني: للمفسرين في الصاعقة قولان. الأول: أنها هي الموت وهو قول الحسن وقتادة واحتجوا عليه بقوله تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾الزمر: ٦٨، وهذا ضعيف لوجوه. أحدها: قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ ولو كانت الصاعقة هي الموت لامتنع كونهم ناظرين إلى الصاعقة، وثانيها: أنه تعالى قال في حق موسى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾الأعراف: ١٤٣ أثبت الصاعقة في حقه مع أنه لم يكن ميتاً لأنه قال: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾الأعراف: ١٤٣ والإفاقة لا تكون عن الموت بل عن الغشي، وثالثها: أن

الصاعقة وهي التي تصعق وذلك إشارة إلى سبب الموت. ورابعها: أن ورودها وهم مشاهدون لها أعظم في باب العقوبة منها إذا وردت بغتة وهم لا يعلمون. ولذلك قال: ﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ منبهاً على عظم العقوبة، القول الثاني: وهو قول المحققين: إن الصاعقة هي سبب الموت ولذلك قال في سورة الأعراف: ﴿ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ واختلفوا في أن ذلك السبب أي شيء كان على ثلاثة أوجه. أحدها: أنها نار وقعت من السماء فأحرقتهم. وثانيها: صيحة جاءت من السماء، وثالثها: أرسل الله تعالى جنوداً سمعوا بخسها فخروا صعقين ميتين يوماً وليلة.

أما قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾ لأن البعث قد لا يكون إلاّ بعد الموت، كقوله تعالى: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴾الكهف: ١١ - ١٢. فإن قلت: هل دخل موسى (عليه السلام) في هذا الكلام؟ قلت: لا، لوجهين. الأول: أنه خطاب مشافهة فلا يجب أن يتناول موسى (عليه السلام). الثاني: أنه لو تناول موسى لوجب تخصيصه بقوله تعالى في حق موسى: ﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ ﴾الأعراف: ١٤٣ مع أن لفظة الإفاقة لا تستعمل في الموت، وقال ابن قتيبة: إن موسى (عليه السلام) قد مات وهو خطأ لما بيناه. أما قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ فالمراد أنه تعالى إنما بعثهم بعد الموت في دار الدنيا ليكلفهم وليتمكنوا من الإيمان ومن تلافي ما صدر عنهم من الجرائم، أما أنه كلفهم فلقوله تعالى:﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ولفظ الشكر يتناول جميع الطاعات لقوله تعالى:

﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾سبأ: ١٣ فإن قيل: كيف يجوز أن يكلفهم وقد أماتهم ولو جاز ذلك فلم لا يجوز أن يكلف أهل الآخرة إذا بعثهم بعد الموت؟ قلنا: الذي يمنع من تكليفهم في الآخرة ليس هو الإماتة ثم الإحياء، وإنما يمنع من ذلك أنه قد اضطرهم يوم القيامة إلى معرفته وإلى معرفة ما في الجنة من اللذات وما في النار من الآلام وبعد العلم الضروري لا تكليف فإذا كان المانع هو هذا

لم يمتنع في هؤلاء الذين أماتهم الله بالصاعقة أن لا يكون قد اضطرهم، وإذا كان كذلك صح أن يكلفوا من بعد ويكون موتهم ثم الإحياء بمنزلة النوم أو بمنزلة الإغماء. ونقل عن الحسن البصري أنه تعالى قطع آجالهم بهذه الإماتة ثم أعادهم كما أحيا الذي أماته حين مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها وأحيا الذين أماتهم بعدما خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت وهذا ضعيف لأنه تعالى ما أماتهم بالصاعقة إلاّ وقد كتب وأخبر بذلك فصار ذلك الوقت أجلاً لموتهم الأول ثم الوقت الآخر أجلاً لحياتهم.

وأما استدلال المعتزلة بقوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ على أنه تعالى يريد الإيمان من الكل فجوابنا عنه قد تقدم مراراً فلا حاجة إلى الإعادة.

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ البقرة: ٥٧

اعلم أن هذا هو الإنعام السابع الذي ذكره الله تعالى وقد ذكر الله تعالى هذه الآية بهذه الألفاظ في سورة الأعراف، وظاهر هذه الآية يدل على أن هذا الإظلال كان بعد أن بعثهم لأنه تعالى قال: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ ﴾ بعضه معطوف على بعض وإن كان لا يمتنع خلاف ذلك، لأن الغرض تعريف النعم التي خصهم الله تعالى بها.

قال المفسرون: ﴿ وَظَلَّلْنَا ﴾ وجعلنا الغمام تظلكم، وذلك في التيه سخر الله لهم السحاب يسير بسيرهم يظلهم من الشمس وينزل عليهم المن وهو الترنجبين مثل الثلج من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس لكل إنسان صاع ويبعث الله إليهم السلوى وهي السماني فيذبح الرجل منها ما يكفيه ﴿كُلُوا﴾ على إرادة القول: ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ يعني فظلموا بأن كفروا هذه النعم أو بأن أخذوا أزيد مما أطلق لهم في أخذه أو بأن سألوا غير ذلك الجنس وما ظلمونا فاختصر الكلام بحذفه لدلالة ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ عليه.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾

البقرة ٥٨-٥٩

اعلم أن هذا هو الإنعام الثامن، وهذه الآية معطوفة على النعم المتقدمة لأنه تعالى كما بين نعمه عليهم بأن ظلل لهم من الغمام وأنزل (عليهم) من المن والسلوى وهو من النعم العاجلة أتبعه بنعمه عليهم في باب الدين حيث أمرهم بما يمحو ذنوبهم وبين لهم طريق المخلص مما استوجبوه من العقوبة.

واعلم أن الكلام في هذه الآية على نوعين:

النوع الأول: ما يتعلق بالتفسير فنقول: أما قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ البقرة: ٥٨فاعلم أنه أمر تكليف، ويدل عليه وجهان: الأول: أنه تعالى أمر بدخول الباب سجداً، وذلك فعل شاق فكان الأمر به تكليفاً ودخول الباب سجداً مشروط بدخول القرية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فثبت أن الأمر بدخول القرية أمر تكليف لا أمر إباحة. الثاني: أن قوله: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِكُمْ ﴾المائدة: ٢١ دليل على ما ذكرناه. أما القرية فظاهر القرآن لا يدل على عينها، وإنما يرجع في ذلك إلى الأخبار، وفيه أقوال: أحدها: وهو اختيار قتادة والربيع وأبي مسلم الأصفهاني أنها بيت المقدس، واستدلوا عليه بقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾المائدة: ٢١ ، ولا شك أن المراد بالقرية في الآيتين واحد، وثانيها: أنها نفس مصر، وثالثها: وهو قول ابن عباس وأبي زيد إنها أريحاء وهي قريبة من بيت المقدس، واحتج هؤلاء على أنه لا يجوز أن تكون تلك القرية بيت المقدس لأن الفاء في قوله تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ تقتضي التعقيب فوجب أن يكون ذلك التبديل وقع منهم عقيب هذا الأمر في حياة موسى، لكن موسى

مات في أرض التيه ولم يدخل بيت المقدس، فثبت أنه ليس المراد من هذه القرية بيت المقدس. وأجاب الأولون بأنه ليس في هذه الآية: أنا قلنا ادخلوا هذه القرية على لسان موسى أو على لسان يوشع، وإذا حملناه على لسان يوشع زال الإشكال. وأما قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ فقد مرّ تفسيره في قصة آدم (عليه السلام) وهو أمر إباحة.

أما قوله تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ ففيه بحثان.

الأول: اختلفوا في الباب على وجهين: أحدهما: وهو قول ابن عباس والضحاك ومجاهد وقتادة إنه باب يدعى باب الحطة من بيت المقدس، وثانيهما: حكى الأصم عن بعضهم أنه عني بالباب جهة من جهات القرية ومدخلاً إليها.

الثاني: اختلفوا في المراد بالسجود فقال الحسن أراد به نفس السجود الذي هو إلصاق الوجه بالأرض وهذا بعيد لأن الظاهر يقتضي وجوب الدخول حال السجود فلو حملنا السجود على ظاهره لامتنع ذلك، ومنهم من حمله على غير السجود، وهؤلاء ذكروا وجهين: الأول: رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس أن المراد هو الركوع، لأن الباب كان صغيراً ضيقاً يحتاج الداخل فيه إلى الانحناء، وهذا بعيد لأنه لو كان ضيقاً لكانوا مضطرين إلى دخوله ركعاً فما كان يحتاج فيه إلى الأمر. الثاني: أراد به الخضوع وهو الأقرب، لأنه لما تعذر حمله على حقيقة السجود وجب حمله على التواضع، لأنهم إذا أخذوا في التوبة فالتائب عن الذنب لا بد أن يكون خاضعاً مستكيناً. أما قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ ففيه وجوه. أحدها: وهو قول القاضي: المعنى أنه تعالى بعد أن أمرهم بدخول الباب على وجه الخضوع أمرهم بأن يقولوا ما يدل على التوبة، وذلك لأن التوبة صفة القلب، فلا يطلع الغير عليها، فإذا اشتهر واحد بالذنب ثم تاب بعده لزمه أن يحكي توبته لمن شاهد منه الذنب، لأن التوبة لا تتم إلاّ به، إذ الأخرس تصح توبته وإن لم يوجد منه الكلام بل لأجل تعريف الغير عدوله عن الذنب إلى التوبة، ولإزالة التهمة عن نفسه، وكذلك من عرف بمذهب خطأ،

ثم تبين له الحق فإنه يلزمه أن يعرف إخوانه الذين عرفوه بالخطأ عدوله عنه، لتزول عنه التهمة في الثبات على الباطل وليعودوا إلى موالاته بعد معاداته، فلهذا السبب ألزم الله تعالى بني إسرائيل مع الخضوع الذي هو صفة القلب أن يذكروا اللفظ الدال على تلك التوبة وهو قوله: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾البقرة: ٥٨، فالحاصل أنه أمر القوم بأن يدخلوا الباب على وجه الخضوع وأن يذكروا بلسانهم التماس حط الذنوب حتى يكونوا جامعين بين ندم القلب وخضوع الجوارح والاستغفار باللسان، وهذا الوجه أحسن الوجوه وأقربها إلى التحقيق. ثانيها: قول الأصم: إن هذه اللفظة من ألفاظ أهل الكتاب أي لا يعرف معناها في العربية. وثالثها: قال صاحب الكشاف (حطة) فعلة من الحط كالجلسة والركبة وهي خبر مبتدأ محذوف أي مسألتنا حطة أو أمرك حطة والأصل النصب بمعنى حط عنا ذنوبنا حطة وإنما رفعت لتعطي معنى الثبات كقوله:

صبر جميل فكلانا مبتلي

والأصل صبراً على تقدير اصبر صبراً، وقرأ ابن أبي عبلة بالنصب. ورابعها: قول أبي مسلم الأصفهاني معناه أمرنا حطة أي أن نحط في هذه القرية ونستقر فيها، وزيف القاضي ذلك بأن قال: لو كان المراد ذلك لم يكن غفران خطاياهم متعلقاً به ولكن قوله: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾البقرة: ٥٨، ، يدل على أن غفران الخطايا كان لأجل قولهم حطة، ويمكن الجواب عنه بأنهم لما حطوا في تلك القرية حتى يدخلوا سجداً مع التواضع كان الغفران متعلقاً به. وخامسها قول القفال: معناه اللهم حط عنا ذنوبنا فإنا إنما انحططنا لوجهك وإرادة التذلل لك، فحط عنا ذنوبنا. فإن قال قائل: هل كان التكليف وارداً بذكر هذه اللفظة بعينها أم لا؟ قلنا روي عن ابن عباس أنهم أمروا بهذه اللفظة بعينها وهذا محتمل ولكن الأقرب خلافه لوجهين. أحدهما: أن هذه اللفظة عربية وهم ما كانوا يتكلمون بالعربية، وثانيهما: وهو الأقرب أنهم أمروا بأن

يقولوا قولاً دالاً على التوبة والندم والخضوع حتى أنهم لو قالوا مكان قولهم: ﴿ حِطَّةٌ ﴾اللهم إنا نستغفرك ونتوب إليك لكان المقصود حاصلاً، لأن المقصود من التوبة، إما القلب وإما اللسان، أما القلب فالندم، وأما اللسان فذكر لفظ يدل على حصول الندم في القلب وذلك لا يتوقف على ذكر لفظة بعينها.

أما قوله تعالى: ﴿ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ ﴾ فالكلام في المغفرة قد تقدم.

أما قوله تعالى: ﴿ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ فإما أن يكون المراد من المحسن من كان محسناً بالطاعة في هذا التكليف أو من كان محسناً بطاعات أخرى في سائر التكاليف. أما على التقدير الأول: فالزيادة الموعودة يمكن أن تكون من منافع الدنيا وأن تكون من منافع الدين. أما الاحتمال الأول: وهو أن تكون من منافع الدنيا، فالمعنى أن من كان محسناً بهذه الطاعة فإنا نزيده سعة في الدنيا ونفتح عليه قرى غير هذه القرية، وأما الاحتمال الثاني: وهو أن تكون من منافع الآخرة، فالمعنى أن من كان محسناً بهذه الطاعة والتوبة فإنا نغفر له خطاياه ونزيده على غفران الذنوب إعطاء الثواب الجزيل كما قال: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾يونس: ٢٦ ، أي نجازيهم بالإحسان إحساناً وزيادة كما جعل الثواب للحسنة الواحدة عشراً، وأكثر من ذلك، وأما إن كان المراد من «المحسنين» من كان محسناً بطاعات أخرى بعد هذه التوبة، فيكون المعنى أنا نجعل دخولكم الباب سجداً وقولكم حطة مؤثراً في غفران الذنوب، ثم إذا أتيتم بعد ذلك بطاعات أخرى أعطيناكم الثواب على تلك الطاعات الزائدة، وفي الآية تأويل آخر، وهو أن المعنى من كان خاطئاً غفرنا له ذنبه بهذا الفعل، ومن لم يكن خاطئاً بل كان محسناً زدنا في إحسانه، أي كتبنا تلك الطاعة في حسناته وزدناه زيادة منا فيها فتكون المغفرة للمؤمنين والزيادة للمطيعين.

أما قوله تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ ففيه قولان. الأول: قال أبو مسلم قوله تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ ﴾ يدل على أنهم لم يفعلوا ما أمروا به، لا على أنهم أتوا له ببدل، والدليل عليه أن تبديل القول قد يستعمل في المخالفة، قال تعالى:

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ ﴾الفتح: ١١ إلى قوله: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾ الفتح: ١٥ ولم يكن تبديلهم إلاّ الخلاف في الفعل لا في القول فكذا ههنا، فيكون المعنى أنهم لما أمروا بالتواضع وسؤال المغفرة لم يمتثلوا أمر الله ولم يلتفتوا إليه. الثاني: وهو قول جمهور المفسرين: إن المراد من التبديل أنهم أتوا ببدل له لأن التبديل مشتق من البدل، فلا بد من حصول البدل، وهذا كما يقال: فلان بدل دينه، يفيد أنه انتقل من دين إلى دين آخر، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾ ثم اختلفوا في أن ذلك القول والفعل أي شيء كان؟ فروي عن ابن عباس أنهم دخلوا الباب الذي أمروا أن يدخلوا فيه سجداً زاحفين على أستاههم، قائلين حنطة من شعيرة، وعن مجاهد أنهم دخلوا على أدبارهم وقالوا: حنطة استهزاء، وقال ابن زيد: استهزاء بموسى. وقالوا: ما شاء موسى أن يلعب بنا إلاّ لعب بنا حطة حطة أي شيء حطة.

أما قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ فإنما وصفهم الله بذلك إما لأنهم سعوا في نقصان خيراتهم في الدنيا والدين أو لأنهم أضروا بأنفسهم، وذلك ظلم على ما تقدم.

أما قوله تعالى: ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ ففيه بحثان:

الأول: أن في تكرير: ﴿ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ زيادة في تقبيح أمرهم وإيذاناً بأن إنزال الرجز عليهم لظلمهم. الثاني: أن الرجز هو العذاب والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ ﴾ أي العقوبة، وكذا قوله تعالى: ﴿ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ ﴾الأعراف: ١٣٤ , وذكر الزجاج أن الرجز والرجس معناهما واحد وهو العذاب.

وأما قوله: ﴿ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ﴾الأنفال: ١١ فمعناه لطخه وما يدعوا إليه من الكفر، ثم إن تلك العقوبة أي شيء كانت لا دلالة في الآية عليه، فقال ابن عباس: مات منهم بالفجأة أربعة وعشرون ألفاً في ساعة واحدة، وقال ابن زيد: بعث الله عليهم الطاعون حتى مات من الغداة إلى العشي خمس

وعشرون ألفاً، ولم يبق منهم أحد.

أما قوله تعالى: ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴾، فالفسق من الخروج المضر، يقال فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها وفي الشرع عبارة عن الخروج من طاعة الله إلى معصيته، قال أبو مسلم: هذا الفسق هو الظلم المذكور في قوله تعالى: ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ وفائدة التكرار التأكيد والحق أنه غير مكرر لوجهين. الأول: أن الظلم قد يكون من الصغائر، وقد يكون من الكبائر، ولذلك وصف الله الأنبياء بالظلم في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا ﴾الأعراف: ٢٣ ؛ ولأنه تعالى قال: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾لقمان: ١٣ولو لم يكن الظلم إلاّ عظيماً لكان ذكر العظيم تكريراً والفسق لا بد وأن يكون من الكبائر فلما وصفهم الله بالظلم أولاً: وصفهم بالفسق، ثانياً: ليعرف أن ظلمهم كان من الكبائر لا من الصغائر. الثاني: يحتمل أنهم استحقوا اسم الظالم بسبب ذلك التبديل فنزل الرجز عليهم من السماء بسبب ذلك التبديل بل للفسق الذي كانوا فعلوه قبل ذلك التبديل وعلى هذا الوجه يزول التكرار.

﴿ وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾البقرة ٦٠

واعلم أن هذا هو الإنعام التاسع من الإنعامات المعدودة على بني إسرائيل، وهو جامع لنعم الدنيا والدين، أما في الدنيا فلأنه تعالى أزال عنهم الحاجة الشديدة إلى الماء ولولاه لهلكوا في التيه، كما لولا إنزاله المن والسلوى لهلكوا، فقد قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ ﴾الأنبياء: ٨ ، وقال: ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّ ﴾الأنبياء: ٣٠بل الإنعام بالماء في التيه أعظم من الإنعام بالماء المعتاد؛ لأن الإنسان إذا اشتدت حاجته إلى الماء في المفازة وقد انسدت عليه أبواب الرجاء لكونه في مكان لا ماء فيه ولا نبات، فإذا رزقه

الله الماء من حجر ضرب بالعصا فانشق واستقى منه علم أن هذه النعمة لا يكاد يعدلها شيء من النعم، وأما كونه من نعم الدين فلأنه من أظهر الدلائل على وجود الصانع وقدرته وعلمه ومن أصدق الدلائل على صدق موسى (عليه السلام)، وههنا مسائل:

المسألة الأولى: جمهور المفسرين أجمعوا على أن هذا الاستسقاء كان في التيه، لأن الله تعالى لما ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى وجعل ثيابهم بحيث لا تبلى ولا تتسخ خافوا العطش فأعطاهم الله الماء من ذلك الحجر، وأنكر أبو مسلم حمل هذه المعجزة على أيام مسيرهم إلى التيه فقال: بل هو كلام مفرد بذاته، ومعنى الاستسقاء طلب السقيا من المطر على عادة الناس إذا أقحطوا ويكون ما فعله الله من تفجير الحجر بالماء فوق الإجابة بالسقيا وإنزال الغيث والحق أنه ليس في الآية ما يدل على أن الحق هذا أو ذاك وإن كان الأقرب أن ذلك وقع في التيه، ويدل عليه وجهان. أحدهما: أن المعتاد في البلاد الاستغناء عن طلب الماء إلاّ في النادر، الثاني: ما روي أنهم كانوا يحملون الحجر مع أنفسهم لأنه صار معداً لذلك فكما كان المن والسلوى ينزلان عليهم في كل غداة فكذلك الماء ينفجر لهم في كل وقت وذلك لا يليق إلا بأيامهم في التيه.

المسألة الثانية: اختلفوا في العصا، فقال الحسن: كانت عصا أخذها من بعض الأشجار، وقيل كانت من آس الجنة طولها عشرة أذرع على طول موسى ولها شعبتان تتقدان في الظلمة والذي يدل عليه القرآن أن مقدارها كان مقداراً يصح أن يتوكأ عليها وأن تنقلب حية عظيمة ولا تكون كذلك إلاّ ولها قدر من الطول والغلظ وما زاد على ذلك فلا دلالة عليه.

واعلم أن السكوت عن أمثال هذه المباحث واجب لأنه ليس فيها نص متواتر قاطع ولا يتعلق بها عمل حتى يكتفى فيها بالظن المستفاد من أخبار الآحاد فالأولى تركها.

المسألة الثالثة: اللام في «الحجر» إما للعهد والإشارة إلى حجر معلوم، فروي أنه حجر طوري حمله معه وكان مربعاً له أربعة أوجه ينبع من كل وجه ثلاثة أعين لكل سبط عين تسيل في جدول إلى ذلك السبط، وكانوا ستمائة ألف وسعة المعسكر اثنا عشر ميلاً، وقيل أهبط مع آدم من الجنة فتوارثوه حتى وقع إلى شعيب فدفعه إليه مع العصا، وقيل: هو الحجر الذي وضع عليه ثوبه حين اغتسل إذ رموه بالأدرة ففر به، فقال له جبريل: يقول الله تعالى: ارفع هذا الحجر فإن لي فيه قدرة ولك فيه معجزة، فحمله في مخلاته، وإما للجنس أي اضرب الشيء الذي يقال له الحجر، وعن الحسن: لم يأمروه أن يضرب حجراً بعينه. قال: وهذا أظهر في الحجة وأبين في القدرة، وروي أنهم قالوا: كيف بنا لو أفضينا إلى أرض ليست فيها حجارة فحمل حجراً في مخلاته فحينما نزلوا ألقاه وقيل: كان يضربه بعصاه فينفجر ويضربه بها فييبس، فقالوا: إن فقد موسى عصاه متنا عطشاً. فأوحى الله إليه لا تقرع الحجارة، وكلمها تطعك، واختلفوا في صفة الحجر فقيل: كان من رخام وكان ذراعاً في ذراع، وقيل: مثل رأس الإنسان. والمختار عندنا تفويض علمه إلى الله تعالى.

أما قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ فنقول: إنما علموا ذلك لأنه أمر كل إنسان أن لا يشرب إلاّ من جدول معين كيلا يختلفوا عند الحاجة إلى الماء، وأما إضافة المشرب إليهم فلأنه تعالى لما أباح لكل سبط من الأسباط ذلك الماء الذي ظهر من ذلك الشق الذي يليه صار ذلك كالملك لهم وجازت إضافته إليهم.

أما قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ البقرة ٦٠

ففيه حذف، والمعنى: فقلنا لهم أو قال لهم موسى: كلوا واشربوا، وإنما قال: كلوا لوجهين، أحدهما: لما تقدم من ذكر المن والسلوى، فكأنه قال: كلوا من المن والسلوى الذي رزقكم الله بلا تعب ولا نصب واشربوا من هذا الماء. والثاني: أن الأغذية لا تكون إلاّ بالماء، فلما أعطاهم الماء فكأنه تعالى أعطاهم

المأكول والمشروب. واحتجت المعتزلة بهذه الآية على أن الرزق هو الحلال، قالوا: لأن أقل درجات قوله: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ الإباحة، وهذا يقتضي كون الرزق مباحاً، فلو وجد رزق حرام لكان ذلك الرزق مباحاً وحراماً وإنه غير جائز.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ البقرة ٦٠ فالعثي أشد الفساد، فقيل لهم: لا تتمادوا في الفساد في حالة إفسادكم لأنهم كانوا متمادين فيه، والمقصود منه ما جرت العادة بين الناس من التشاجر والتنازع في الماء عند اشتداد الحاجة إليه، فكأنه تعالى قال: إن وقع التنازع بسبب ذلك الماء فلا تبالغوا في التنازع والله أعلم.

واعلم أن الكلام في هذا الباب كالكلام فيما كان من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في بعض الغزوات وقد ضاق بهم الماء فوضع يده في متوضئه ففار الماء من بين أصابعه حتى استكفوا.

السؤال الخامس: معجزة موسى في هذا المعنى أعظم أم معجزة محمد (عليه السلام)؟ الجواب: كل واحدة منهما معجزة باهرة قاهرة، لكن التي لمحمد (صلى الله عليه وسلم) أقوى لأن نبوع الماء من الحجر معهود في الجملة، أما نبوعه من بين الأصابع فغير معتاد ألبتة فكان ذلك أقوى.

السؤال السادس: ما الحكمة في جعل الماء اثنتي عشرة عيناً؟ والجواب: أنه كان في قوم موسى كثرة والكثير من الناس إذا اشتدت بهم الحاجة إلى الماء ثم وجدوه فإنه يقع بينهم تشاجر وتنازع وربما أفضى ذلك إلى الفتن العظيمة فأكمل الله تعالى هذه النعمة بأن عين لكل سبط منهم ماء معيناً لا يختلط بغيره والعادة في الرهط الواحد أن لا يقع بينهم من التنازع مثل ما يقع بين المختلفين.

﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي

هُوَ أَدۡنَىٰۚ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴾البقرة٦١

اعلم أن أكثر الظاهريين من المفسرين زعموا أن ذلك السؤال كان معصية، وعندنا أنه ليس الأمر كذلك، والدليل عليه أن قوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ من قبل هذه الآية عند إنزال المن والسلوى ليس بإيجاب بل هو إباحة، وإذا كان كذلك لم يكن قولهم: ﴿لَن نَّصْبِرَ على طَعَام واحد فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ معصية لأن من أبيح له ضرب من الطعام يحسن منه أنً يسأل غير ذلك إما بنفسه أو على لسان الرسول، فلما كان عندهم أنهم إذا سألوا موسى أن يسأل ذلك من ربه كان الدعاء أقرب إلى الإجابة جاز لهم ذلك ولم يكن فيه معصية.

واعلم أن سؤال النوع الآخر من الطعام يحتمل أن يكون لأغراض: الأول: أنهم لما تناولوا ذلك النوع الواحد أربعين سنة ملوه فاشتهوا غيره، الثاني: لعلهم في أصل الخلقة ما تعودوا ذلك النوع وإنما تعودوا سائر الأنواع ورغبة الإنسان فيما اعتاده في أصل التربية وإن كان خسيساً فوق رغبته فيما لم يعتده وإن كان شريفاً. الثالث: لعلهم ملوا من البقاء في التيه فسألوا هذه الأطعمة التي لا توجد إلاّ في البلاد وغرضهم الوصول إلى البلاد لا نفس تلك الأطعمة. الرابع: أن المواظبة على الطعام الواحد سبب لنقصان الشهوة وضعف الهضم وقلة الرغبة والاستكثار من الأنواع يعين على تقوية الشهوة وكثرة الالتذاذ، فثبت أن تبديل النوع بالنوع يصلح أن يكون مقصود العقلاء، وثبت أنه ليس في القرآن ما يدل على أنهم كانوا ممنوعين عنه، فثبت أن هذا القدر لا يجوز أن يكون معصية، ومما يؤكد ذلك أن قوله تعالى: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡ﴾ كالإجابة لما طلبوا ولو كانوا عاصين في ذلك السؤال لكانت الإجابة إليه معصية وهي غير جائزة على الأنبياء، لا يقال: إنهم لما أبوا شيئاً اختاره

الله لهم أعطاهم عاجل ما سألوه كما قال: ﴿ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ﴾الشورى: ٢٠ لأنا نقول هذا خلاف الظاهر، واحتجوا على أن ذلك السؤال كان معصية بوجوه. الأول: أن قولهم: ﴿ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ ﴾ دلالة على أنهم كرهوا إنزال المن والسلوى وتلك الكراهة معصية، الثاني: أن قول موسى عليه السلام: ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ استفهام على سبيل الإنكار، وذلك يدل على كونه معصية. الثالث: أن موسى (عليه السلام) وصف ما سألوه بأنه أدنى وما كانوا عليه بأنه خير وذلك يدل على ما قلناه، والجواب عن الأول: أنه ليس تحت قولهم: ﴿ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ ﴾ دلالة على أنهم ما كانوا راضين به فقط، بل اشتهوا شيئاً آخر، ولأن قولهم: ﴿ لَن نَّصْبِرَ ﴾ إشارة إلى المستقبل؛ لأن كلمة لن للنفي في المستقبل فلا يدل على أنهم سخطوا الواقع، وعن الثاني: أن الاستفهام على سبيل الإنكار قد يكون لما فيه من تفويت الأنفع في الدنيا وقد يكون لما فيه من تفويت الأنفع في الآخرة، وعن الثالث: بقريب من ذلك، فإن الشيء قد يوصف بأنه خير من حيث كان الانتفاع به حاضراً متيقناً ومن حيث إنه يحصل عفواً بلا كد كما يقال ذلك في الحاضر، فقد يقال في الغائب المشكوك فيه: إنه أدنى من حيث لا يتيقن ومن حيث لا يوصل إليه إلاّ بالكد، فلا يمتنع أن يكون مراده: ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ هذا المعنى أو بعضه فثبت بما ذكرنا أن ذلك السؤال ما كان معصية بل كان سؤالاً مباحاً، وإذا كان كذلك فقوله تعالى: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾البقرة ٦١، لا يجوز أن يكون لما تقدم بل لما ذكره الله تعالى بعد ذلك وهو قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾البقرة ٦١ فبين أنه إنما ضرب الذلة والمسكنة عليهم وجعلهم محل الغضب والعقاب من حيث كانوا يكفرون لا لأنهم سألوا ذلك.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ ﴾ ليس المراد أنه واحد في النوع بل أنه واحد في النهج وهو كما يقال: إن طعام فلان على

مائدته طعام واحد إذا كان لا يتغير عن نهجه.

أما قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ فالمعنى جعلت الذلة محيطة بهم حتى مشتملة عليهم فهم فيها كمن يكون في القبة المضروبة أو ألصقت بهم حتى لزمتهم ضربة لازم كما يضرب الطين على الحائط فيلزمه والأقرب في الذلة أن يكون المراد منها ما يجري مجرى الاستحقاق كقوله تعالى فيمن يحارب ويفسد: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ المائدة: ٣٣ فأما من يقول المراد به الجزية خاصة على ما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ التوبة: ٢٩ فقوله بعيد لأن الجزية ما كانت مضروبة عليهم من أول الأمر.

أما قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ فالمراد به الفقر والفاقة وتشديد المحنة، فهذا الجنس يجوز أن يكون كالعقوبة، ومن العلماء من عد هذا من باب المعجزات لأنه (عليه السلام) أخبر عن ضرب الذلة والمسكنة عليهم ووقع الأمر كذلك فكان هذا إخباراً عن الغيب فيكون معجزاً.

أما قوله تعالى: ﴿وَبَآءُو﴾ ففيه وجوه. أحدها: البوء الرجوع، فقوله: ﴿وَبَآءُو﴾ أي رجعوا وانصرفوا بذلك ولا يقال باء إلّ بشر. وثانيها: البوء التسوية. فقوله: ﴿وَبَآءُو﴾ أي استوى عليهم غضب الله. قال الزجاج. وثالثها: باؤ أي استحقوا، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ﴾ المائدة: ٢٩ أي تستحق الإثمين جميعاً. وأما غضب الله فهو إرادة الانتقام.

أما قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ البقرة ٦١ فهو علة لما تقدم ذكره من ضرب الذلة والمسكنة عليهم وإلحاق الغضب بهم. قالت المعتزلة: لو كان الكفر حصل فيهم بخلق الله تعالى كما حصلت الذلة والمسكنة فيهم بخلقه لما كان جعل أحدهما جزاء الثاني أولى من العكس، وجوابه المعارضة بالعلم والداعي، وأما حقيقة الكفر فقد تقدم القول فيها.

أما قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ البقرة ٦١ فالمعنى أنهم يستحقون ما تقدم لأجل هذه الأفعال أيضاً وفيه سؤالات.

السؤال الأول: أن قوله تعالى: ﴿يَكْفُرُونَ﴾ دخل تحته قتل الأنبياء فلم أعاد ذكره مرة أخرى؟ الجواب: المذكور ههنا الكفر بآيات الله، وذلك هو الجهل والجحد بآياته فلا يدخل تحته قتل الأنبياء.

السؤال الثاني: لم قال: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ البقرة ٦١ وقتل الأنبياء لا يكون إلاّ على هذا الوجه؟ الجواب من وجهين: الأول: أن الإتيان بالباطل قد يكون حقاً لأن الآتي به اعتقده حقاً لشبهة وقعت في قلبه وقد يأتي به مع علمه بكونه باطلاً، ولا شك أن الثاني أقبح فقوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ البقرة ٦١ أي أنهم قتلوهم من غير أن كان ذلك القتل حقاً في اعتقادهم وخيالهم بل كانوا عالمين بقبحه ومع ذلك فقد فعلوه. وثانيها: أن هذا التكرير لأجل التأكيد كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ المؤمنون: ١١٧

ويستحيل أن يكون لمدعي الإله الثاني برهان. وثالثها: أن الله تعالى لو ذمهم على مجرد القتل لقالوا: أليس أن الله يقتلهم ولكنه تعالى قال: القتل الصادر من الله قتل بحق ومن غير الله قتل بغير حق.

وأما قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟﴾ فهو تأكيد بتكرير الشيء بغير اللفظ الأول وهو بمنزلة أن يقول الرجل لعبده وقد احتمل منه ذنوباً سلفت منه فعاقبه عند آخرها: هذا بما عصيتني وخالفت أمري، هذا بما تجرأت علي واغتررت بحلمي، هذا بكذا فيعد عليه ذنوبه بألفاظ مختلفة تبكيتاً. أما قوله تعالى: ﴿وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ فالمراد منه الظلم: أي تجاوزوا الحق إلى الباطل. واعلم أنه تعالى لما ذكر إنزال العقوبة بهم بين علة ذلك فبدأ أولاً بما فعلوه في حق الله تعالى وهو جهلهم به وجحدهم لنعمه ثم ثناه بما يتلوه في العظم وهو قتل الأنبياء ثم ثلثه بما يكون منهم من المعاصي التي تخصهم ثم ربع بما يكون منهم من المعاصي المتعدية إلى الغير مثل الاعتداء والظلم، وذلك في نهاية حسن الترتيب. فإن قيل: قال ههنا: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ البقرة ٦١ ذكر الحق بالألف واللام معرفة، وقال في آل عمران: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

﴿ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ ﴾آل عمران: ٢١نكرة، وكذلك في هذه السورة: ﴿ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٗۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ۞ لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ ﴾ آل عمران: ١١٢ - ١١٣ فما الفرق؟ الجواب: الحق المعلوم فيما بين المسلمين الذي يوجب القتل، قال (عليه السلام)، «لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى معانٍ ثلاث، كفر بعد إيمان وزنا بعد إحصان وقتل نفس بغير حق « فالحق المذكور بحرف التعريف إشارة إلى هذا وأما الحق المنكر فالمراد به تأكيد العموم أي لم يكن هناك حق لا هذا الذي يعرفه المسلمون ولا غيره البتة.

*** الطباطبائي:**

قوله تعالى:﴿ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡ ﴾، أي يتركونهن أحياء للخدمة من غير أن يقتلوهنّ كالأبناء فالاستحياء طلب الحياة ويمكن أن يكون المعنى، ويفعلون ما يوجب زوال حيائهنّ من المنكرات، ومعنى يسومونكم يولوّنكم.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ ﴾ مقابل الجمع كالفصل والوصل، والفرق في البحر الشقّ والباء للسببية أو الملابسة أي فرقنا لإنجائكم البحر أو لملابستكم دخول البحر.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ﴾ وقصّ تعالى القصة في سورة الأعـراف بقوله:﴿ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ﴾الأعـراف: ١٤٢، فعد المواعدة فيها أربعين ليلة إما للتغليب أو لأنه كانت العشرة الأخيرة بمواعدة أخرى، فالأربعون مجموع المواعدتين كما وردت به الرواية.

قوله تعالى: ﴿ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ ﴾البارىء من الأسماء الحسنى كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾الحشر: ٢٤، وقع في ثلاث مواضع من كلامه تعالى: اثنان منها في هذه الآية ولعلّه خصّ بالذكر ههنا من بين الأسماء الملائمة معناه للمورد لأنه قريب المعنى من الخالق والموجد،

من برأ يبرأ براء إذا فصل لأنه يفصل الخلق من العّدم أو الإنسان من الأرض، فكأنه تعالى يقول: هذه التوبة وقتلكم أنفسكم وإن كان أشق ما يكون من الأوامر لكن الله الذي أمركم بهذا الفناء والزوال بالقتل هو الذي برأكم فالذي أحب وجودكم وهو خير لكم هو يحب الآن حلول القتل عليكم فهو خير لكم وكيف لا يحب خيركم وقد برأكم، فاختيار لفظ البارىء بإضافته إليهم في قوله: ﴿ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ ﴾، وقوله ﴿ عِندَ بَارِئِكُمۡ ﴾ للإشعار بالاختصاص لإثارة المحبة.

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ ﴾، ظاهر الآية وما تقدمها أن هذه الخطابات وما وقع فيها من عد أنواع تعدياتهم ومعاصيهم إنما نسبت إلى الكل مع كونها صادرة عن البعض لكونهم جامعة ذات قومية واحدة يرضى بعضهم بفعل بعض، وينسب فعل بعضهم إلى آخرين.

لمكان الوحدة الموجودة فيهم، فما كل بني إسرائيل عبدوا العجل، ولا كلهم قتلوا الأنبياء إلى غير ذلك من معاصيهم وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾، إنما يعني به قتل البعض وهم الذين عبدوا العجل كما يدل عليه أيضاً قوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ ﴾ تتمة الحكاية من قول موسى كما هو الظاهر، وقوله تعالى: ﴿ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ ﴾ يدل على نزول التوبة وقبولها، وقد وردت الرواية أن التوبة نزلت ولما يقتل جميع المجرمين منهم.

ومن هنا يظهر أن الأمر كان أمراً امتحانياً نظير ما وقع في قصة رؤيا إبراهيم (عليه السلام) ﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ ﴾ الصافات: ١٠٤ - ١٠٥، فقد ذكر موسى (عليه السلام) ﴿ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ ﴾، وأمضى الله سبحانه قوله (عليه السلام) وجعل قتل البعض قتلاً للكل وأنزل التوبة بقوله: ﴿ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾، الرجز العذاب.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَعۡثَوۡاْ ﴾البقرة ٦٠، العيث والعثّ أشد الفساد.

قوله تعالى: ﴿ وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا ﴾، القثاء الخيار والفوم الثوم أو الحنطة.

قوله تعالى: ﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٍ ﴾، أي رجعوا.

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴾، تعليل لما تقدمه.

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ ﴾، تعليل للتعليل فعصيانهم ومداومتهم للاعتداء هو الموجب لكفرهم بالآيات وقتلهم الأنبياء كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾الروم: ١٠ ، وفي التعليل بالمعصية وجه سيأتي في البحث الآتي.

في تفسير العيّاشي،: في قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةً ﴾ عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: كان في العلم والتقدير ثلاثين ليلة ثم بدا منه فزاد عشراً فتم ميقات ربه الأول والآخر أربعين ليلة.

أقول: والرواية تؤيد ما مرّ أن الأربعين مجموع المواعدتين.

وفي الدر المنثور: عن علي (عليه السلام): في قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم ﴾ الآية، قال: قالوا لموسى: ما توبتنا؟ قال: يقتل بعضكم بعضاً فأخذوا السكاكين فجعل الرجل يقتل أخاه وأباه وابنه والله لا يبالي من قتل حتى قتل منهم سبعون ألفاً فأوحى الله إلى موسى مرهم فليرفعوا أيديهم وقد غفر لمن قتل وتيب على من بقي.

وفي تفسير القمي: قال (عليه السلام): إن موسى لما خرج إلى الميقات ورجع إلى قومه وقد عبدوا العجل قال لهم موسى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ ﴾ فقالوا له: كيف نقتل أنفسنا فقال لهم موسى: أُغدوا كل واحد منكم إلى بيت المقدس ومعه سكين أو حديدة أو سيف فإذا صعدت أنا منبر بني إسرائيل فكونوا أنتم ملتثمين لا يعرف أحد صاحبه فاقتلوا بعضكم بعضاً، فاجتمعوا سبعين ألف رجل ممّن كان عبدوا العجل إلى بيت المقدس فلما صلى بهم موسى وصعد

المنبر أقبل بعضهم يقتل بعضاً حتى نزل جبرائيل فقال: قل لهم: يا موسى ارفعوا القتل فقد تاب الله لكم، فقتل منهم عشرة آلاف وأنزل الله: ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾.

أقول: والرواية كما ترى تدل على كون قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ ﴾ مقولاً لموسى ومقولا له سبحانه فيكون إمضاءً لكلمة قالها موسى وكشفاً عن كونها تامة على خلاف ما يلوح من الظاهر من كونها ناقصة فإن الظاهر يعطي أن موسى جعل قتل الجميع خيراً لهم عند بارئهم، وقد قتل منهم البعض دون الجميع فجعل سبحانه ما وقع من القتل هو الخير الذي ذكره موسى (عليه السلام) كما مرّ.

وفي تفسير القمي، أيضاً: في قوله تعالى: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ ﴾، الآية أن بني إسرائيل لما عبر موسى بهم البحر نزلوا في مفازة فقالوا: يا موسى أهلكتنا وقتلتنا وأخرجتنا من العمران إلى مفازة لا ظل، ولا شجر، ولا ماء. وكانت تجيء بالنهار غمامة تظلهم من الشمس وينزل عليهم بالليل المنّ فيقع على النبات والشجر والحجر فيأكلونه وبالعشي يأتيهم طائر مشوي يقع على موائدهم فإذا أكلوا وشربوا طار ومرّ وكان مع موسى حجر يضعه وسط العسكر ثم يضربه بعصاه فتنفجر منها اثنتا عشرة عيناً كما حكى الله فيذهب إلى كل سبط في رحله وكانوا اثني عشر سبطاً.

وفي الكافي: في قوله تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ البقرة: ٥٧، عن أبي الحسن الماضي (عليه السلام) قال: إن الله أعز وأمنع من أن يظلم أو ينسب نفسه إلى الظلم ولكنه خلطنا بنفسه فجعل ظلمنا ظلمه وولايتنا ولايته، ثم أنزل الله بذلك قرآناً على نبيه فقال: وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون. قال الراوي: قلت: هذا تنزيل، قال: نعم.

أقول: وروي ما يقرب منه أيضاً عن الباقر (عليه السلام) وقوله (عليه السلام): أمنع من أن يظلم بالبناء للمفعول تفسير لقوله تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾، وقوله:

أو ينسب نفسه إلى الظلم بالبناء للفاعل، وقوله: (ولكنه خلطنا بنفسه) أي خلطنا معاشر الأنبياء والأوصياء والأئمة بنفسه، وقوله: قلت: هذا تنزيل؟ قال: نعم ووجهه أن النفي في هذه الموارد وأمثالها إنما يصح في ما يصح فيه الإثبات أو يتوهم صحته، فلا يقال للجدار، أنه لا يبصر أو لا يظلم إلاّ لنكتة وهو سبحانه أجلّ من أن يسلم في كلامه توهم الظلم عليه، أو جاز وقوعه عليه، فالنكتة في هذا النفي الخلط المذكور لأن العظماء يتكلمون عن خدمهم وأعوانهم.

وفي تفسير العيّاشي: في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾البقرة ٦١

الآية عن الصادق (عليه السلام) أنه قرأ هذه الآية: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾البقرة ٦١

فقال: والله ما ضربوهم بأيديهم ولا قتلوهم بأسيافهم ولكن سمعوا أحاديثهم فأذاعوها فأخذوا عليها فقتلوا فكان قتلاً واعتداءً ومصيبة.

أقول: وفي الكافي عنه (عليه السلام) مثله وكأنه (عليه السلام) استفاد ذلك من قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ فإن القتل وخاصة قتل الأنبياء والكفر بآيات الله لا يعلل بالعصيان بل الأمر بالعكس على ما يوجبه الشدة والأهمية لكن العصيان بمعنى عدم الكتمان والتحفظ مما يصح التعليل المذكور به.

التعليق على ما مرّ من التفسير نقول

هذه الفقرة التي وردت في القرآن والتي تتحدث عن أحوال بني إسرائيل مع موسى (ع) وما لاقوه من فرعون، وبعدها عبور البحر، وعبادة العجل، والتوبة بالقتل، وطلب الطعام... كل هذه المسائل جاءت متطابقة إلى حد بعيد بالشرح والتفسير عند كل المفسرين الذين استعرضنا أقوالهم.

ولم نجد إختلافاً جوهرياً بينهم ما عدا بعض الألفاظ والمفردات.

وفي هذه الفقرة تحديداً تميز بشكل واضح الفخر الرازي بتفسيره العميق والشامل، كما برز الطبري بشكل واضح من خلال إيراده للعديد من الروايات التي فسرت هذه الآيات المباركة وأيضاً الشيرازي حيث جمع بين العمق والشمولية في التفسير مع سلاسة في الأسلوب والتقديم.

وعليه فإن هذه الفقرة ولله الحمد مجمع حولها دون نقاش.

الفهرس

سورة البقرة الآية ٢٦-٢٩	٥
شروح معنى الأمثال في القرآن	
سورة البقرة الآية ٣٠-٣٩	١١٧
مسألة خلق وإستخلاف آدم (ع) واستفهام الملائكة واستكبار ووسوسة إبليس وتوبة آدم ومعنى الكلمات	
سورة البقرة الآية ٤٠-٤٦	٣٤٧
تذكير وتقريع بني إسرائيل ودعوتهم للتصديق بدعوة النبي (ص)	
سورة البقرة الآية ٤٧-٤٨	٤٣٣
الامتنان على بني إسرائيل ومسألة الشفاعة	
سورة البقرة الآية ٤٩-٦١	٤٩٣
أحوال بني إسرائيل مع فرعون وعبادة العجل ومسألة التوبة وطلب الطعام وغيرها من مسائل	